د. ابراهيم ناجي

كيف تفهم الناس؟

دراسات نفسية

الكتاب: كيف تفهم الناس؟

الكاتب: د. ابراهيم ناجي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

ناجي ، ابراهيم
كيف تفهم الناس؟/ ابراهيم ناجي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٩ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ١٨٩ – ٩٩١ – ٩٧٧- ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨١٤٠ / ٢٠٢١

كيف تفهم الناس؟

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى أخي الأستاذ مُحَمَّد ناجي مستشار المكتب الثقافي الدولي تحيتان..

الأولى لك أيها الأخ كعالم من علماء النفس ..

والثانية كمستشار للمكتب الثقافي الدولي الذي يعمل في صمت عمل الرجال.

إبراهيم ناجي

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة في عـــامر وأشـــعة في بلقـــع

فـإذا طـوي الله النهــار تراجعـت شـتى الأشـعة فالتقـت في المرجـع

أحمد شوقي

مقدمة

علم النفس أحدث العلوم. وهو يعد أقواها اليوم وأكثرها تغلغلاً في نواحي الحياة. لقد كان هذا العلم منذ عهد قريب فرعا من الفلسفة، أو على الأصح ذيلا لها، ثم استقل بنفسه، وما زال يشتد وتقوى دعائمه حتى صار أساساً للعلوم الأخرى التي كان في الماضي ظلا لها..

ولعل سر هذا التطور، هو في الأغلب ناشئ من فهم معنى "علم النفس" على الوجه الصحيح، أو بلفظة أدق ناشئ من فهم تلك "النفس" على حقيقة أكثر دقة ووضوحاً وأقل غموضاً وإبهاماً، معنى كلمة النفس **Psyche** باليونانية، الروح –فيكون "علم الروح" هو ذلك العلم الذي يبحث في ذلك "الشيء" الذي يلبس الجسد فيعطيه صفة الحياة، كان المعتقد إذ ذاك أن "الروح" مادة رقيقة شفافة خفية، لها علاقة بالهواء كما للهواء علاقة بالمادة، وكان المعتقد أن لها صفة التغلغل في الأجسام مع احتفاظها بكيانها وقدرتها على الانفصال. فلما جاء أفلاطون، رفض قبول هذه الفكرة، فكرة أن الروح "مادة"، وقال إنها شيء لا تستطيع الحواس إدراكه، وإنما يمكن للفكر أن يهتدى إليه.

فلما جاء أرسطو ألف رسالته الشهيرة عن "الروح" معارضاً فيها الفكرتين السابقتين، قائلاً إن "الروح" ما هي إلا خلاصة العمليات الحيوية، وأخذ يشرح الفرق بين الحي والجماد، منتهياً إلى أن الحي هو الذي تتجلى

فيه مميزات خاصة ليست في الجماد، أما وجود "كيان خاص"، يمكن أن يستمر بعد الموت، فهذا ما لم يستطع الوصول إلى رأي حاسم بصدده، وظل النقاش دائراً حول ماهية الروح، فحاول الفلاسفة والمفكرون في العصور الوسطى أن يجمعوا بين فكرتي أفلاطون وأرسطو، أي أن الروح "شيء لا مادي" يمكن أن يستمر عمله بعيداً عن الجسم، وبعد موت الجسم، وكانت نتيجة هذا الفهم انصراف العقول إلى تفهم الحالة الفكرية للروح، وإهمال دراسة عمليات الجسم التي كان أرسطو يعدها شيئاً هاماً جداً.

فلما جاء ديكارت في القرن السابع عشر، صرح بكل جرأة أنه ليس هناك من فرق بين الحي والجماد إلا في أن الحي له عقل مفكر وأن الإنسان هو الوحيد الذي له "روح" أو بعبارة أخرى له "طبقة عالية خاصة من الفكر والإرادة" تلك هي الروح، وهذا التفكير العالي منشؤه عمليات ميكانيكية مادة معقدة، على أنه لما أخذت العلوم الطبيعية في التقدم، نال رأي ديكارت شيئاً من التأييد، ولكن ظل السؤال باقياً: مادامت العمليات واحدة في الإنسان والحيوان، لماذا يختص الإنسان "بالروح"؟ أخذت المادية تطغى حتى جاء من الفلاسفة فريقان، فريق مثل بركلي الذي هاجم المادية، ودافيد هيوم الذي أنكر أمر الروح بتاتاً،حتى جاء "كانت" في أواخر القرن الثامن عشر، فحاول أن يجد بفلسفته مخرجاً لكل هذا. فذكر أن العالم الطبيعي إنما هو انعكاس لما هو في عقولنا، وحتى القوانين الطبيعية ما هي إلا انعكاس للقوانين التي بها ترتبط عقولنا وعلى أساسها تقوم!

وكما أننا لا نستطيع البرهنة على وجود العقل بالملاحظة المباشرة،

وإنما بالظواهر العقلية، فكذلك نحن لا يمكننا أن نستطيع البرهنة على وجود الروح بالطرق العلمية، ولكن ملاحظتنا لطبيعة الخلق كفيلة بأن تجعلنا نؤمن بوجود كيان خالد هو فرق الإدراك الحسي.

ولقد آمن المفكرون بعد "كانت" بنظريته عن طبيعة العالم المادي، وترددوا في قبول رأيه عن طبيعة الروح. والنتيجة لكل ذلك أنه مادام شأن "الروح" مجهولاً" ولم يستقر الرأي عليه بعد، فليس من الصواب أن يكون للروح "علم".. إذ أن هذا العلم يجب أن يحدد وطبيعته يجب أن تحدد وحدوده يجب أن ترسم بوضوح، قبل أن يصير علماً يدرس وينتفع به.

على أننا ما دمنا قد انتهينا إلى الإيمان "بالعقل" إيماناً لا سبيل إلى نكرانه، فلنسم علم "الروح" إذن علم العقل ولكن يقوم هناك اعتراضان الأول أن المنطق هو علم العقل الحقيقي، والثاني هل يكفي الإيمان بالعقل بدون الوقوف على ماهيته بوضوح وتحقيق لنجعل له علماً خاصاً، الواقع أن موقفنا من علم "الروح" لا يختلف كثيراً عن موقفنا من علم "العقل"..

عند هذه المرحلة جاء من المفكرين الحديثين من قالوا تأخذ من العقل ما هو واقعي وملموس، وهو "الوعي" فنسمي علم النفس "علم الوعي"– ونكون بذلك قريبين من "ديكارت"، إذ اعتبرنا الوعي "توجهاً" خاصاً ناشئاً من العمليات الحيوية، ولكن قصر العلم على "الوعي" يضيق مجاله، بل ويقصره على الوعي الخاص لا العام، وفوق ذلك أن هذا "الوعي" يؤدي إلى "السلوك" الإنساني أو الحيواني فلماذا لا نبحث هذا "السلوك الإنساني"، ولماذا لا نسمي علم "النفس" علم "سلوك" الأحياء وبهذا نجد

موقفنا واضحاً، وفي الوقت نفسه نجد أنفسنا راجعين إلى رأي أرسطو الذي فرق بينا لحي الذي له "سلوك" والجماد الذي ليس له. نعني بالسلوك قوة داخلية تجعل الحي يعمل لصالحه بنشاط وله مرمى محدد واتجاه خاص– فإذن يكون ذلك الغرض والاتجاه إلى هدف، ميزة السلوك وميزة الأحياء معاً، ولكي نعرف الفرق بين الحي والجماد، فكر في كرة البلياردو التي لا تتحرك إلا إذا دفعتها، وبين القط أو الكلب الذي تحمله بيديك وتضعه في مكان ما فتجد له حركة وهدفا ورغبة.. وقد تختلف الحركة أو الهدف أو الرغبة في حي عنه في آخر، بمعنى أنها قد تكون بسيطة هنا أو معقدة هناك، ولكنها تظل على كل حال دليل الحياة، وتكون دراسة ذلك "السلوك" الطريق الوحيد لفهم النفس ولفهم الحياة معاً، فأينما اتجهنا، ودققنا النظر في طبيعة الأحياء نجد هذا الهدف المحدد الاتجاه، مهما تعددت الوسائل وتشعبت الطرق. ومهما يبدو عليها من الجمود "والميكانيكية" فإن خلف هذا الجمود الظاهري وحدة الغرض والهدف المرموق. وعلى هذا يشمل التعريف الأحياء من الإنسان إلى الحيوان إلى النبات.

ومادامت العمليات العقلية واعية أو غير واعية مآلها "السلوك" –أي العمل على طريقة ما، فدراسة هذا السلوك مؤدية في النهاية إلى دراسة عمليات التفكير، وزيادة في ذلك فإن دراستنا للسلوك هي دراسة في متناول أيدينا، هي دراسة للواقع الملموس. وتخرج بالعلم عن دائرة الحدس والتخمين والظنون، عندما استقر علم النفس على هذا الأساس المكين، أخذ يشتد ساعده كعلم، ويتفرع كدوحة تثبتت أصولها، وزد على ذلك أن

دراسة السلوك الطبيعي مع ما أدت إليه من فهم كثير من العمليات النفسية والفكرية المعقدة، سرعان ما تبعها بحث السلوك المرضي، وقد قام ذلك على أساس ما بسطه فرويد وأتباعه عن العقل الباطن، والقوى الكامنة فيه، وطبيعة الغرائز وكفاحها، بحيث أدى ذلك إلى تلقيب السيكولوجية الحديثة بالسيكولوجية "الديناميكية" إذا سمينا القديمة بالسيكولوجية "الاستاتيكية".

فلكي تفهم الناس، ولكي تفهم نفسك يجب أن تقوم بدراسة الناحيتين معاً، دراسة السلوك الطبيعي والسلوك المرضي، وكيف يصير الطبيعي مرضياً أو العكس.

ولعل ما قدمته في هذا الكتاب يلقي شيئا من الضوء على هذا العالم العجيب البعيد الأغوار، الذي نسميه "عالم النفس".

إبراهيم ناجي

سيكولوجية الصناعة

Industrial Psychology

لقد كان علم النفس حتى بعض سنوات مضت علماً ناشئاً ،لم يخرج عن كونه أحد فروع الفلسفة. ولكنه لم يلبث أن نما سريعاً وصار ذا أثر فعلى في حياتنا العملية. فجرى تطبيقه على كل نواحي الحياة، فهناك سيكولوجية للأدب وأخرى للسياسة، وأخرى للدين وهكذا، وها نحن اليوم في هذا المقال نرى تطبيقه في الصناعة.

لقد بدأت أهمية علم النفس في الصناعة تبدو بوضوح أثناء الحرب العظمى " العالمية الثانية " عندما كان يزج بالشباب في جميع المهن بدون اختيار تبعاً للحاجة الماسة لذلك. فلاحظ ولاة الأمور سوء النتائج ورأوا الدماء تهدر والشباب يفنى ويهصر فبدأوا يفكرون جدياً في الموضوع وأنشأوا المكاتب الخاصة لاختيار المتقدمين لمختلف المهن حتى لا يقبل في الطيران مثلا إلا من يصلح له ولا يقبل في اللاسلكي إلا من له استعداد لتعلمه وهكذا في مختلف المهن الأخرى ولشد ما كانت دهشة القائمين بالأمر عندما حصلوا على نتائج بارعة دعتهم إلى التعمق في البحث في هذا الموضوع لمعرفة الاختبارات الملائمة لكل نوع من المهن مما أدى إلى ازدهار هذا العلم ونموه. وعندما وضعت الحرب أوزارها أخذت كل أمة تحاول النهوض بصناعاتها بعد أن ضعضعتها الحرب وأفنت زهرة شبابها وأفنت اليد العاملة. فأخذت المصانع تنشئ المكاتب الخاصة بعلم النفس،

لمعالجة مشاكل جديدة نشأت بعد الحرب وهي قلة اليد العاملة والاحتياج الشديد إلى إنتاج يعوض ما فات. وقد قامت تلك المكاتب بمهمتها خير قيام وكان لها جليل الأثر في إنعاش الصناعة إذ أنها بنت تجاربها على حقائق علم النفس الثابتة.

ونستطيع أن نلخص النقط التي تهمنا في علم النفس الصناعي فيما يأتي:

١- علم النفس الخاص بالمهنة، وهو الجزء الذي يهتم بكيفية اختيار العامل وتوجيهه لمهنة بعينها.

٢- علم النفس الخاص بالعامل ،وهو الذي يدرس غرائز العامل وانفعالاته، وكيفية الانتفاع بتلك المعلومات لصالح العمل والعمال.

٣- علم النفس الخاص بالعمل ،وهو الجزء الذي يبحث في الوسط الذي يحيط بالعامل والعوامل التي تؤثر فيه للانتهاء إلى أحسن جو ملائم لمصلحة العامل والعمل.

علم النفس الخاص بالمهنة

يقوم علم النفس الخاص بالمهنة على حقيقة ثابتة هي اختلاف الذكاء بين فرد وآخر ولذا سأذكر بعض حقائق عن الذكاء واختباراته.

كان المعتقد عند الفلاسفة والمفكرين أن الناس يتساوون في وجود ذكاء دفين عندهم جميعاً يمكن إظهاره بالطرق المناسبة والوسائل اللازمة لكن الاختبارات الحديثة أكدت عكس ذلك واتضح أن الناس يختلفون في الذكاء وأن الذي يزيد أو ينقص بالتربية والتعليم إنما هو المواهب

والكفايات والأمزجة المختلفة وقد اصطلح جميع العلماء أخيراً على أن الذكاء نوعان ذكاء وهبي يولد مع المرء بكمية خاصة لا تزيد ولا تقل والنوع الثاني ذكاء مكتسب أو اجتماعي وهذا هو الذي تتغير كميته. وهو مبني على عوامل كثيرة قد تتاح للمرء أو لا تتاح كالتجارب والثقافة والظروف والبيئة فعلى ذلك نرى أن الكمية تختلف في الذكاء الفطري والصفة تختلف في الذكاء الاجتماعي. وعلى هذا يقسم الناس من ناحية التفكير إلى أقسام مختلفة. فمنهم من يميل إلى الانفراد والقعود في جو من أحلامه وأفكاره منقبض النفس يميل إلى سوء الظن والتشاؤم ومنهم العملي الذي يميل إلى المغامرة ويقبل على كل شيء بتطلع وشغف. وهنا صار يتعين على اختبارات علم النفس أن تظهر مقدار الذكاء الفطري وفي أي اتجاه يستطيع أن ينمو ويزدهر حتى يمكن أن ينتفع بالذكاء والعبقرية وإلا ضاعا فيما لم يخلقا له.

وهذه الاختبارات تقوم على أن الذكاء هو "أن تجيد الفهم وتصيب الحكم وتحسن التعليل" وأول من كتب في هذا الموضوع هو السير فرانسيس مالتون سنة ١٨٦١ ثم عاود الكرة سنة ١٨٨٣. ومن المصادفة أن تناول باحثان أمريكيان هذا الموضوع في أواخر القرن التاسع عشر. ولكن اختبارات هؤلاء لم تلق النجاح الذي لقيته اختبارات بينيه **Benet** البحاثة الفرنسي عندما نشرها في كتابه "السيكولوجية الفردية" سنة ١٨٩٥.

وفي سنة ١٨٠٤ نيطت بـ "بينيه" عملية التمييز بين الأطفال العاديين والمتأخرين في الذكاء فكانت الأسئلة التي استعان بها عبارة عن امتحانات مختصرة يعطي المجيب عليها درجات معينة ولكن الصعوبة التي وجدت إذ

ذاك كانت أن الممتحن لم يكن لديه أساس قياسي يستطيع أن يرجع إليه للمقارنة. وفي سنة ١٩٠٥ نشر بينيه مقياساً ثابتاً، معتمداً على الخبرة الطويلة التي اكتسبها أثناء تجاربه العديدة في مدارس الأطفال بباريس وهذا المقاس مكون من ثلاثين اختبارا متدرجة في الصعوبة. فالاختبارات الأولى منها تعتمد على قوة الملاحظة وسرعة الخاطر وقوة الذاكرة ودقة الفهم والأخيرة أصعب من الأولى كأن يطلب من الطفل أن يميز بين الميل والاحترام، وهذا المقياس لا يختلف كثيراً عن المقاييس المستعملة حالياً إلا في نوع الأسئلة ولم يكن إذ ذاك أية فكرة عن علاقة السن بالذكاء. فالآن قسمت الاختبارات إلى مجموعات تتناسب مع الأعمار. ولقد تدرجت الاختبارات حتى أمكن اليوم عمل اختبارات خاصة بكل عمر من الأعمار وإعطاء درجات مضبوطة عن الذكاء لكل سن معين. مثال ذلك أنه لو أجاب شخص عمره ١٤ سنة على الأسئلة المقررة لسن ١٤ كان عادياً وأعطيت له الدرجة كالآتي ١٤ على ١٤ في ١٠٠ يساوي ١٠٠ وإذا أجاب شخص عمره ١٠ سنوات على الأسئلة المقررة لسن ١٤ أعطت له الدرجة كالآتي ١٤ على ١٠ في ١٠٠ يساوي ١٤٠ وهكذا حلت مشكلة العلاقة بين العمر والذكاء على أنه يجب أن نتذكر أن مقدار الذكاء الفطري لا يمشي بنسبة اطرادية، مع مقدار النجاح في الحياة، فقد يحدث غالباً أن يكون الشخص المتقد ذكاءاً ينقصه حسن التصرف في علاقاته مع الآخرين، بينما يتوفر ذلك فيمن هو أقل منه ذكاءاً، وقد اتضح أننا في حياتنا العملية من ناحية النجاح في الحياة يتفوق ذكاؤنا المكتسب على الوهبي دائماً وقد أدى ذلك إلى قياس الذكاء المكتسب: وهي اختبارات يطلب

فيها صحة الحكم على نوع من التصرف في موقف من المواقف الاجتماعية.

نعود إلى الذكاء الوهبي: فنقول إنه قامت أبحاث واسعة النطاق لمعرفة ما يتناسب مع ذكاء المرء من المن وانتهوا إلى الجدول الآتي:

أعلى من ١٥٠ درجة	للزعامة والأعمال الإدارية والسياسية.
١٣٠- ١٥٠	الأعمال الفنية كالهندسة والطب والمحاماة.
١١٥- ١٣٠	الأعمال الكتابية والتي تحتاج إلى مهارة يدوية.
١٠٠- ١١٥	الأعمال التجارية.
٨٥- ١٠٠	الأعمال التجارية البسيطة والأعمال اليدوية التي لا تحتاج إلى مهارة كبيرة.
٧٠- ٨٥	أعمال جثمانية لا تحتاج إلى مهارة مطلقاً.
٥٠- ٧٠	عمل فاعل أو عتال.
أقل من ٥٠	ضعاف العقول والبلهاء.

علم النفس الخاص بالمهنة

هذا العلم فرعان: الأول خاص بالتوجيه المهني أي لاختبارات التي تحدد المهنة التي يليق لها العامل المتقدم والثاني يختص بالاختبار أي بالامتحانات التي بها يستطاع اختبار الشخص الذي يصلح لمهنة ما.

التوجيه: من الواضح أنه ليس من العقل في شيء أن نعطي صبياً ذا مهارة ميكانيكية خاصة مهنة ساع أو فراش..وكذلك إذا وضعنا فتاة ليست على شيء من سلامة الذوق في مهنة حائكة فمن البديهي أنها لن توفق ولا ينتظر لها النجاح في عملها.

ومما يذكر عن التقلصات التي تصيب عضلات اليد في الكتاب وعمال التلغراف أن معهد الأبحاث في لندن قرر أن السبب الحقيقي ليس هو التعب ولا الإجهاد وإنما هو في عدم ملاءمة العمل لطبيعة الشخص الموكل إليه ذلك العمل.

قال تاجور شاعر الهند العظيم "إن يوم عملنا ليس يوم لهونا".

وقد قال بعض الفلاسفة "إنا لنود أن يكون عملنا هو الشيء الوحيد الذي نميل إليه بكلياتنا ويتناسب مع ميولنا الطبيعية ليبلغ الإثمار والإنتاج حدهما الأعلى" ولا شك أن ملاءمة الشخص لعمله شيء يتطلبه العقل ويحبذه، كما أن قليلين هم الذين يدركون أهمية ذلك والعواقب الوخيمة التي تترتب على عدم ملاءمة الإنسان لعمله وأقل ما في ذلك أن يعتري الإنسان السأم والملل. ويعتبر عمل اليوم عبئاً ثقيلاً يود لو زيح عن كاهله وقد تصل به الحال إلى مقت هذا العمل حتى يصير شبحاً مخيفاً لا يمكن تصوره بدون فزع.

وقد ذكر جليسبي وغيره أن السأم الذي يعتري العامل من عدم ملاءمة العمل لطبيعته كثيراً ما يؤدي به إلى القلق العصبي **anxiety neurosis** أو إلى النوراستانيا.

ومن هنا كانت أهمية علم النفس الخاص بالتوجيه المهني. وقد أثبت ذلك العلم ضمن ما أثبته أن هذا السأم شديد العدوى ينتقل من عامل إلى عامل انتقال النار في الهشيم.

ومما أثبته أيضاً أن العامل الذي قضى عليه نحس الطالع أن يوضع فيما لم يخلق له. كثير التغيب عن عمله عرضة لحوادث العمل. وكثيراً ما صار فوضوياً محترفاً أو أنواة للثورة والإضراب.

والطرق التي يلجأ إليها علماء النفس عادة في التوجيه المهني **Vocational guidance** مختلفة. ولكنها جميعاً تلتقي في نقطة واحدة وهي وجوب عمل الاستشارة في عمر مبكر قبل أبي فوت الوقت، لأن الشخص كلما تقدم في السن، يكون قد اعتاد عملاً بعينه فيصير من الصعب عليه فيما بعد أن يغيره.

والسن الملائم للاختبارات يتراوح بين الحادية عشر والرابعة عشر ويبدأ دائماً باختبار الذكاء العام وإعطاء درجة فيه لحصر المنطقة التي يستطاع أن يوجه إليها المتقدم. "راجع جدول الذكاء" ويلي ذلك اختبار المواهب والكفايات المختلفة على أنه اتضح أن بعض المواهب تنبثق متأخرة. فالمقدرة الميكانيكية مثلاً لا تظهر إلا بعد سن الثانية عشر وهي تقاس بإعطاء آلة بسيطة مفككة يطلب من الطالب تركيبها.

ولامتحان موهبة التصور يعطى الطالب صورة معينة ثم يطلب منه ثلاث حكايات مختلفة تستطيع أن تدل عليها هذه الصورة– أو يسأل الطالب سؤالاً يدل على مقدرته على التنبؤ. والتنبؤ فيه خيال وتصور،

كأن تسأل مثلاً، ماذا يحدث لو استطاع الإنسان أن يمشي بسرعة ١٠٠٠ ميل في الساعة؟ ومجموع هذه الاختبارات يعطي صورة تقريبية عن الشخص فيستطيع عالم النفس أن يدله على الطريق الذي يستحسن أن يسلكه وينصحه بإتباعه.

الاختبار المهني

لا يجب الاعتماد على المظهر والفكرة السطحية بتاتاً –أي لا يجب أن تقول "هذا الشخص تلوح عليه مخايل الذكاء– فكثيراً ما تخدع المظاهر. بل يجب:

"١" المقابلة **Interview**

"٢" التجربة

أما المقابلة فلا داعي في التحدث عن ضرورتها، فهي تعطي لمحة عامة ومن التنقل في الحديث يمكن تكوين فكرة عامة تكمل بالأمر التالي وهو: التجربة..وذلك أن يختبر العامل في شيء يشبه العمل المؤهل له الطالب. نضرب على سبيل المثل طريقة اختبار سائق الترام في هامبورج:

يوضع أمام الطالب لوحة فيها شريط أسود يعرض في حركة دائمة مستمرة في اتجاه واحد. وعلى اللوحة نفسها ثقوب مفردة ومزدوجة ومختلفة البعد فالمفردة تمثل المشاة والمزدوجة تمثل المركبات ويمكن بواسطة مصابيح كهربائية صغيرة إضاءة هذه أو تلك ويعطي للشخص الممتحن جرس ورافعة تحرك باليد اليسرى وآلة تدار باليد اليمنى ويبدأ بإضاءة الأنوار في الثقوب المختلفة على التوالي وبديهي أنه عندما يقترب أحد

الثقوب من المركبة يكون هناك خطر، والخطر يختلف باختلاف المسافة من المركبة وكذلك في حالة ما إذا كان الثقب يمثل فرداً أو مركبة– وهنا يطلب من الممتحن أن يدق الجرس للخطر البسيط ويحرك الرافعة للخطر الكبير ثم يدير الآلة للخطر الداهم. ويستمر هذا الامتحان حوالي ١٢ دقيقة تسجل فيها حركات الطالب وسكناته. ثم تقارن نتائجه مع النتائج القياسية التي وصل إليها من تجربة بعض السائقين المهرة والمتوسطين والضعفاء.

وقد برهنت هذه الآلة على نجاح باهر في دقة الاختبار. وهذه الاختبارات توجد لدى جميع الشركات فلا يمكن أن يقبل الطالب جزافاً لمجرد التوصية به.

هذه طريقة إجمالية– وهناك طريقة أخرى تحليلية **analytic**.

هذه الطريقة ترمي إلى امتحان الطالب في أجزاء العمل فعمل كواء ينقسم إلى أقسام عدة، كالفرز والتنظيف والكي. وكل قسم من هذه يمكن أن ينقسم إلى أجزاء أخرى. فيلاحظ عمل الطالب إذن في كل أجزاء العمل، وفي إحدى تلك الاختبارات كانت النتيجة كما يأتي:–

١" ذكاء تحت المتوسط لا بأس به.

٢" ملاحظة جيدة للبقع. نظرة صائبة في طي الملابس.

٣" حركات اليد سريعة وجيدة ومنظمة.

٤" يبدو عليه الاهتمام ولا يتطرق إليه السأم.

٥" قوته الجسدية تامة.

ولو طبقنا هذا على سائق الترام لالتفتنا لما يأتي:

١" سرعة تركيز الفكر.

٢" الانتباه.

٣" حضور الذهن.

٤" الثقة بالنفس.

علم النفس الخاص بالعامل

يقوم هذا العلم على فهم غرائز العامل وطباعه وانفعالاته ومطامحه وآماله فيجب أن ندرس نفسيته درساً كافياً ويجب أن ندرس الدوافع التي تدفعه لعمل شيء ما.

على أن بعض الدوافع تبدو للناظر سطحية وهي أعمق مما يتصوره الكثيرون. إذ أن هناك غرائز ثابتة تسيطر على كل مخلوق بشرى ولكن منها ما يعمل عمله بالأكثر في وسط العمال. وعلى ذلك تؤثر على علاقة الفرد بزميله، والرئيس بمرءوسه والفرد بالمجموع وتؤثر في النهاية على الإنتاج العام للمصنع أو المعمل. ويفسر علم النفس ذلك بأنها الغرائز التي تسيطر على العامل وتحت تأثيرها يعمل أو لا يعمل، وينتج أو لا ينتج، يسعد أو يشقى، يهدأ أو يثور، وتلك الغرائز ليست منفصلة الواحدة عن الأخرى بل هي حلقة متشابكة ويمكن القول أنها تتلخص في ثلاثة:

١- حب الملك ويتفرع منها:

أ"- إثبات الذات.

ب" حب الظهور.

٢– التحدي والمقاتلة.

٣– التجنب والهرب.

غريزة حب الملك: أساس هذه الغريزة إن كل شيء يملكه الإنسان يعده جزءاً من نفسه فيدافع عنه كما يدافع عن نفسه وقد يكون ملك الإنسان لشيء ما وهمياً ولكنه مع ذلك يدافع عنه ويتأثر فقده كأنه حقيقة. من الأمثلة على ذلك:

مر رئيس مصنع بفتاة من العاملات فوجدها تبكي بكاءاً مراً لأن رئيسة الوحدة التي تعمل بها أعطت ماكينتها لفتاة غيرها. لم تكن الماكينة يوماً ملكاً لها، إذ هي في الواقع ملك المصنع، ولكنها تبكي لفقدها كأنها حقيقة تملكها. ومن الأمثلة أيضاً إعطاء عمل شخص ما لآخر، لأن كل شخص يسره أن يرى عمله ينمو ويكبر على يديه فيشعر أنه قد أصبح جزءاً منه، فيعز عليه أن يراه أعطى لآخر دون تعب أو عناء.

ولما كانت تلك الغريزة تعد من أهم العوامل في زيادة الإنتاج ووفرته فإن من المهم جداً أن نلاحظها بين العمال، نلاحظ وجودها، نلاحظ اختفائها، نلاحظ كل ما يختص بسيرها الطبيعي بينهم.

وها هي الأسباب التي تدعو إلى اختفائها:

١– حلول الآلة محل اليد: لأن الفرد لا يتبين مجهوده في وسط الإنتاج العام للآلات.

٢- فقدان الأمان والاستقرار، كأن يكون العامل مهدداً بالفصل أو الحرمان في كل وقت فإنه يصبح ولا رغبة له في الابتكار والتجديد يلفق عمله كيفما اتفق.

٣- التذمر وعدم الرضى فإن هذا يمنع العامل من الافتخار بمجهوده والزهو بإنتاجه.

أما غريزة إثبات الذات فتظهر بوضوح في نواحي الحياة المختلفة فكل امرئ مهما كان ضئيلاً في مركزه الاجتماعي يشعر بأن على شيء من القيمة ويحاول أن يثبت ذلك. حتى الطفل الصغير، حتى الشحاذ فإذا تجاهلنا هذا أو ذاك عد ذلك منا إساءة لا تغتفر فكان من جراء ذلك أن معاملة الفرد لشيء له قيمة -إنسانية على الأقل- واجب ولا يكلف كثيراً. بينما يجني المصنع أو المعمل من ورائه أرباحاً طائلة وفي كل المصانع التي استطاعت أن تقاوم الأزمات الشديدة التي مرت بأوروبا في السنين الماضية ولم تقفل أبوابها كما فعل الكثيرون اتضح أن السبب الأكبر في ذلك يرجع إلى حسن العلاقة بين العمال ورؤسائهم وإلى تمسك العمال بمصنعهم فعندما حلت الأزمة ووجبت التضحية قدمت بغير تردد من الجانبين من جانب المصنع ومن جانب العمال فبعض هذه المصانع اضطر إلى الاستمرار في العمل نصف أيام الأسبوع فقط وقبل العمال ذلك طائعين مختارين دون أن يتناولوا أجراً عن أيام البطالة الباقية من الأسبوع لأنهم يشعرون أنهم جزء من المصنع يجب أن يتحملوا معه السراء والضراء. وبذلك استطاع المصنع أن يجابه العاصفة ويقف أمامها مناضلاً مجاهداً غير عابئ بها حتى مرت بسلام وخرج من المعركة منتصراً ظافراً بفضل حسن

التعاون بينه وبين عماله.

ويتفرع من غريزة حب الظهور وحب الظهور وحب السلطة: أما حب الظهور فيمكن استغلاله في إثارة روح المنافسة، وهنا يحسن بنا أن نلاحظ أمراً جوهرياً وهو أنه يستحسن أن لا تثار روح المنافسة بين فردين، إذ قد يؤدي ذلك إثارة روح الكره فيحدث ما لا تحمد عقباه.

والأفضل أن تثار روح المنافسة بين جماعتين حيث أننا نصل بذلك إلى تربية روح الجماعة واشتغال الفرد في سبيل الكل. وفي ذلك تنمية لروح التعاون التي يهمنا أن تنمو وتبدوا واضحة جلية.

أما حب السلطة فهو غريزة حب الذات في شكل آخر وتتوقف على المزاج والظروف وهي طبيعة بشرية قوامها إظهار سطوة الإنسان على أخيه الإنسان وينشأ من ذلك تصادم الآراء والمطامع والأهواء. وقد تثير الغريزة السابقة غريزة أخرى أشرنا إليها في مبدأ هذا الباب، وهي غريزة التحدي والمقاتلة –وذلك ما نسميه اصطلاحاً وتجاوزاً بالكره. والكره شيء معقد غير بسيط بل هو مزيج من الغضب وحب الانتقام والتجنب والنفور– فإذا ازداد الأمر سوءاً قد تكون النتيجة عاطفة مشوهة ملتوية، تؤدي إلى اعتداء العامل على رئيسه أو من أساء إليه لسبب غير معقول، أعني بذلك أن الدوافع تتجمع يوماً فيوما حتى تصل إلى انفجار يثيره –في الظاهر– سبب قد نعده تافها.

علم النفس الخاص بالعمل

مهمة علم النفس الخاص بالعمل تحسين حالة العمل، والجو المحيط به. وجعله أكثر ما يكون ملائمة لنوع العمل، وكذلك البحث عن أسباب التعب وإزالة بعضها وتقليل الباقي إلى أقصى حد ممكن لنستطيع تحسين الإنتاج الذي ترمي كل الجهود إلى زيادته، وقد اتضح مما ذكرنا آنفاً أن السبب الأكبر في فشل الإنتاج الصناعي هو عدم فهم نفسية العامل، وقد قلنا أن ذلك يجعل منه رجلاً مهملاً متراخياً لا لذة له في العمل ولا دافع والثاني إرهاق العامل. مما يؤدي إلى تعبه. وقد يكون أغلب هذا التعب بلا مبرر بالمرة ويمكن تلافيه بالبحث عن دوافعه.

فالتعب إما عقلي أو جسدي أو عصبي وليس بين أنواع التعب الثلاثة فارق كبير بل الواقع أن الجسم وحدة متماسكة وما يؤثر في جزء منه يؤثر في الآخر أما التعب العقلي فقد درسنا أسبابه عند الكلام عن علم النفس الخاص بالعامل، أما العصبي فقد لوحظ أن العمل الآلي المتواصل يؤدي إلى السآمة والملل.

وقد تفننت الشركات في إبعاد هذه السآمة ومعالجة الأعصاب المتوترة بإعطاء فترات كثيرة من الراحة والترويح عن العمال بطرق شتى من التسلية ولم يلاحظ أن الإنتاج العام قل بل بالعكس وجد أنه تحسن عن ذي قبل.

أما التعب الجسدي وهو تعب العضلات فأسبابه كثيرة. وهو قسمان تعب غير لازم وهو الذي يبحث علم النفس في استبعاده. وتعب لازم وهو الناشئ من حركاتنا المختلفة ولا بد منه، ويبحث علم النفس في كيفية تقليله.

أما أسباب التعب غير اللازم فهي سوء التهوية وسوء الإضاءة وسوء ترتيب العمل.

أما سوء التهوية فيؤدي إلى الخمول والتعب وقلة الإنتاج. وقد اختلف الباحثون كثيراً في عرفان سبب هذا الخمول فمنهم من قال أن السبب هو تشبع الجو بثاني أكسيد الكربون، ومنهم من قال قلة الأكسجين الصالح، ومنهم من قال بل مواد سامة تخرج مع التنفس من الرئتين. وعلى هذا كان المعقول أن مجرد دخول هواء صالح بدل الفاسد وزوال هذه الأسباب يزول الخمول والتعب. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بل لم يتجدد النشاط بدخول الهواء الجديد فكان لابد من البحث عن سبب آخر وقد اهتدوا إليه أخيراً –وذلك ركود الهواء والرطوبة حول الجسم– إذ أن ذلك يمنع تسرب الحرارة من الجسم فتحدث حرارة داخلية هي السبب في الخمول. كما أن الرطوبة تمنع تبخر العرق والإفرازات فينشأ من ذلك خمول وتعب. وعلى ذلك فإنه إذا أحدثت حركة في الهواء الراكد بواسطة مراوح موضوعة على قاعدة، تبرد الجو إلى درجة خاصة امتنعت أسباب الركود، فزالت أسباب الخمول.

أما سوء الإضاءة، فيؤدي إلى تعب الأعين وهذا يؤدي إلى تعب الجسم على العموم. وكما أن الضوء الضعيف يجهد العين فإن الضوء الشديد إذا وضع في مكان خطأ بالنسبة للعين فإنه يجهدها لأن العين بطبيعتها ميالة إلى النظر لهذا الضوء بحركات انعكاسية خارجة عن إرادتنا وفي نفس الوقت تحاول العضلات بحركة إرادية أن تمنع العين من الاتجاه إلى هذا الضوء الشديد ومجرد تلك المحاولة المستمرة فيه إجهاد للعضلات

وإجهاد للجسم. ولقد أمكن معالجة كل تلك الأحوال بواسطة الإضاءة الهندسية الحديثة كما أنه اخترعت حديثاً مصابيح تضاء ببخار الزئبق يستطاع الاستعاضة بها عن ضوء النهار.

وهناك نتيجة أخرى شوهدت بعد تحسين التهوية والإضاءة– هي قلة الإصابات. والسبب الأساسي لهذه الإصابات هو أولا اختيار عامل لا يصلح لما وكل إليه كما بينا سابقاً. وثانياً اشتغال العامل وهو مجهد مضني، ويظهر أن السبب الأول يؤدي إلى السبب الثاني. ولقد اتضحت أخيراً حقيقة عجيبة: فلقد ظهر أن كل العمال الذين يصابون أو يتسببون في الحوادث هم هم في كل مرة تقريباً.

أما سوء ترتيب العمل، فيؤدي لأن يقوم العامل بحركات لا لزوم لها، كأن يكلف المشي لتناول آلات بعيدة، أو يكلف بعمل يقتضيه رفع يديه وخفضهما كثيراً بلا داع. فلابد من نظام ثابت للعمل، وترتيب يوفر على العمال التنقل والحركة بلا ضرورة.

ولما كان من الضروري إدراك وجود هذا التعب قبل أن يظهر، لكي نتدارك تأثيره في الإنتاج فقد اتبعت طريقة خاصة، وهي أن نصنع رسمياً بيانياً للعامل وعمله اليومي، ولهذا الخط مميزات خاصة كأن يرتفع على مهل وينحدر على مهل، فإذا طرأ على هذا الخط ما يغير صورته بادرنا بالبحث عن السبب تلافياً لسوء الأثر. والسأم يبين في هذا الخط إذا كان على شكل واد مرتفع من الجانبين ومنخفض من الوسط. إذ أن ذلك يدل على أنه يبدأ بنشاط وينتهي بنشاط ولكن السئيم يتراخى أثناء النهار.

وهناك عدة وسائل لاختبار التعب:

– الدوائر والثقوب.

٢– أجهزة خاصة "رفع ثقل".

٣– الإحساس بالألم.

وهي تجارب معروفة لطلاب الفسيولوجية.

٤– بواسطة دراسة الحركة والزمن، ومعنى ذلك تصوير العامل بواسطة آلة السينما أثناء عمله. فعند ما يعرض الفيلم ببطء يستطاع أن يعرف الكثير عن حركاته ومداها وزمانها.

أما تلافي التعب فيكون بإعطاء أوقات الراحة في فترات مختلفة، مع تقصير ساعات العمل، زيادة على راحة آخر الأسبوع. ولقد دلت النتائج على أن فترات الراحة وتقصير ساعات العمل لا يقللان من الإنتاج بل بالعكس يحسنان كميته وصفته.

المراجع:

Industrial psychology, Meyers; Realm of the Mind, Meyers; Proper Studies, Aldous Huxley.

علم النفس الطبي

MEDICAL PSYCHOLOGY

استخدم علم النفس منذ أقدم العصور عن طريق غير مقصود في معالجة الأمراض، ويمكن القول أن جميع الأطباء العظام كانوا علماء نفس بالفطرة، وفي الوقت الذي كانت وسائط العلاج ووسائله وأدواته ومعداته قليلة محدودة يرى لنا تاريخ الطب قصصاً واقعية مدهشة عن نتائج للعلاج تكاد تكون ضروباً من المعجزات ويضم هذا التاريخ في صفحاته أسماء أطباء خلدوا ذكراهم بالنجاح الذي أحرزوه. ولا شك أن لعلم النفس دخلاً كبيراً في هذا النجاح ويمكن إرجاعه إلى أسباب ثلاثة هي:

١- شخصية الطبيب.

٢- تأثير هذه الشخصية على المريض.

٣- قدرة الطبيب على الإيحاء.

ويمكن القول أنه، قد تكون معلومات الطبيب في الحد الأدنى ولكنها قد تتحول إلى قوة ديناميكية هائلة، إذا اقترنت بشخصية جبارة، ومن هذا نعلم لماذا كان للدجل والشعوذة، مكانهما الشاذ حتى في عصرنا الحالي عصر النور والمعرفة، فما بالنا إذا اقترن العلم الصحيح بشخصية تعتمد على فهم علم النفس وتطبقه حيثما وجدت لذلك سبيلاً.

ولقد زودنا "فرويد" وتلاميذه وأتباعه بما قاموا به من أبحاث بأسلحة

ماضية جديدة لمعالجة النفس البشرية وقد صدق المرحوم السير "دافيدويلكي" الجراح المشهور حين قال: "إن أهم الوثبات التي وثبها علم الطب الحديث هو فهم العوامل النفسية للأمراض فهماً جديداً.

غير أننا نعلم الآن علم اليقين، أن العمليات الجسمية المختلفة عضوية كانت أم عصبية أم كيمائية لابد وأن تسير جنباً إلى جنب مع العمليات النفسية، إذ أنه لابد للجسم أن يسير في أعماله كوحدة متجانسة، وحتى العمليات النفسية يجب أي تسير هي كذلك كوحدة متجانسة، إذ يعتقد أكثر علماء النفس أن أساس الأمراض العقلية هو الانفصال بين "الذات" الـ **ego**، وبين باقي العمليات السيكولوجية.

ويمكن تطبيق علم النفس في عالم الطب بطريقتين:

"١" تطبيق مبادئ علم النفس البحت.

"٢" تطبيق مبادئ علم النفس القائم على التحليل **Psychoanalysis**.

وفي كلا الطريقتين يكون التحليل نوعاً من العلاج، فعندما تحل العقد الملتوية، وتتضح الحقائق المشوهة تحت ضوء جديد، يراه المريض ويؤمن به، يكون الشفاء غير بعيد.

وفي كلا الطريقتين لابد لنا من درس شخصية المريض ودرس العوامل التي أدت إلى الحالة الراهنة ولابد أن نعرف مدى تأثير البيئة على المريض.

فإذا اتبعنا طريقة التحليل بواسطة علم النفس البحت، نلجأ إلى مبادئ بسيطة، فإذا لم نستطع نلجأ إلى الطريقة الثانية التي تبنى على تحليل

الصراع الداخلي **conflict** الذي ينطوي عليه العقل الباطن، ولنضرب لذلك مثلاً "جنون العظمة" **Paranoia** هذه الكلمة اصطلاح يستعمل للدلالة على بعض تطورات متزايدة تأخذ شكل أوهام تخضع لنظام معين، فهناك نزعات بارونية تظهر في أشكال خاصة، ولو تتبعنا تاريخ الشخص بدقة لوجدنا أن الاضطرابات تظهر أولاً في دور المراهقة إذ يبدو المريض على شيء من الشذوذ والغرابة، مع اعتزاز بنفسه، وشك في الآخرين، فينظر المريض إلى المجتمع نظرة غامضة فهو لا يفهم أفعال الناس الآخرين أو قد يفهمها مشوهة أو ملتوية، فهو يبني لنفسه عقيدة خاطئة عن الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وبذلك يتخذ لنفسه نظاماً غريباً يسير على نمطه، ومعنى اعتزازه بنفسه أن عنده أنانية مركزة في ذاته، فنجده يغالي في مقدرته الفردية، غير أنه في المراهقة لا تبدو أعراض الجنون واضحة، ولكنه عندما بدأ في إطلاق الحرية التامة لميوله الطبيعية. تبدأ المشاكل في الظهور ويقول وودورث **Woodworth** أن خطته تسير وفق أبسط مبادئ علم النفس، فإنها نفس الطريقة التي يسلكها حيوان محبوس في قفص، فإنه يبني لنفسه خطة خاصة يتمكن بواسطتها من فتح القفص وجلب الطعام لنفسه، وقد أجبره على هذا المنهج استجابته الخاصة لدافع المجتمع وهذا الدافع هو ما نسميه عادة "بالغريزة" وهذا الشخص "الحيواني" يلقي مقاومة لما انتهج، فيرمي رمية أصابت أم أخطأت ويظل كذلك مهتدياً بما أصاب، حتى يكون لنفسه نظاماً مؤسساً على الرميات الناضجة التي حصل عليها في هذه المحاولات، وفي بعض حالات خاصة تجد أن المريض كأنما يبحث عن شيء في الظلام –يتلمس طريقه– بدل أن يسير على

نظام صحيح يوصله لما يريد، وبطريقته هو قد يحصل على السرور الذي ينشده، ولكنها طريقة تعقب شداً وجذباً يحدثان توتراً في داخلية نفسه، وهذا السلوك البارانوي قد يحدث لأي شخص عادي ولكننا لا نستطيع أن نعثر على حالة حقيقية من دون أن نلم بتاريخ الدلائل النفسية من الصغر حتى الكبر.

ويمكننا أن نجنب العالم شرور هذه الاضطرابات العقلية التي تنشأ عند بعض الأفراد كما أننا يمكننا أن نجنب العالم ويلات الحروب إذا عزلنا كل شخص نلاحظ عليه الاصطباغ بأعراض البارانويا ، ولا أدري لماذا نعزل المريض بأمراض معدية، بينما نترك في المجتمع هؤلاء الأشخاص الذين تقلقلت نفسياتهم إلى حد خطير؟

ولكن ماذا يحدث للمريض بالبرانويا حقيقة؟ إن الذي يحدث هو أنه يستبدل صالح المجتمع مما يراه صالحاً لنفسه ولشخصه فقط، وهذا ما يسميه واطسن **Watson** بالتواء الخلق **character distortion** ويرد إلى هذا الالتواء كل الاضطرابات النفسية والعقلية فإن ظروف الحياة ومتاعبها تقضي أن يفطم الأطفال عقلياً كما يفطمون عن الرضاعة ليتمكنوا من الوقوف على أقدامهم في المجتمع ،ويجب ألا تتركز عواطف الآباء حول أطفالهم فحسب ،بل على مسائل الحياة الهامة. فكثيراً ما تكون الضحية الطفل ووالده على السواء. ففي عائلة مصاب جميع أفرادها بالعصبي **neurosis** كانت الأم قد جاوزت المائة، وكان لها ثلاثة أبناء غير متزوجين وكان عمر أصغرهم ٧٠ سنة، وكانوا يدعونه طفل ماما أو "النونو"! وقد تكون هذه حالة لا خطر فيها، ولكن قد يكون لأمثالها

عواقب وخيمة على المجتمع، وخلاصة ذلك سواء كان نتيجة البيئة أو التربية فإن الآفة التي نريد تجنبها هي: لا يجب بأي حال تضحية المصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة.

هذا بيان لطريقة التحليل على وفق أبسط مبادئ علم النفس، ولقد ذكرنا أن الخلاف بين الدافع للمجتمع، والدافع لإرضاء الذات يؤدي إلى ما نسميه بالتوتر **tension** في داخل النفس وهذا التوتر هو في الواقع نواة نظرية فرويد، ولكن فرويد وأتباعه يرون آراء جديدة في تفسير هذا التوتر وشرح أسبابه، ولنأخذ مثلاً يوضح لنا ما يقصدون، فإن الحالة التي يسمونها القلق العصبي **anxiety neurosis** مرض كثير الشيوع، بين الموظفين وبين المتزوجين، وعند أرباب الأعمال، وغيرهم وغيرهم، وقد يحدث التوتر إما من الداخل أو من الخارج، فإذا كان من الداخل يكون نتيجة لتطور عاطفي خاطئ، وغالباً ما يكون هذا التطور الخاطئ ناشئاً منذ الطفولة، أما التوتر الخارجي فينشأ من الفشل في تحقيق الأغراض الغريزية، اجتماعية كانت أو جنسية أو ما كان منها في سبيل إحراز للتفوق، على أن التوتر الداخلي يحس في المحيط العقلي كشيء من الضيق وفي المحيط الجسدي كهزة عضوية، وعند الرجال يبدأ القلق من التصادم ببيئة غير مواتية، وعند النساء يكون في محيط العواطف، وفي الحالتين يرجع السبب الرئيسي إلى "الملل" فالاستمرار على وتيرة واحدة ليل نهار بدون تغيير، ينهض سبباً من أهم أسباب القلق العصبي، وهناك قصة عن رجل يقوم بتخطيط نوع واحد من اللوحات لا يغيره لعدة سنين، فنشأ عنده ألم غامض في رقبته، وقد نسبوا ذلك في النهائية إلى السأم الذي أصابه من

تكرار عمل لا يغيره، فلما أعطى عملاً جديداً زال الألم من رقبته.

وفي دور المراهقة يؤدي الجهل بالحياة عامة وشئون الجنس خاصة إلى القلق العصبي، وقد يزداد فيؤدي إلى التدهور الخلقي، فالشبان والآنسات الذين ابتعدوا عن أوكارهم المنزلية ينتظرون من الحياة أكثر مما تعودوه، فتحدث الصدمة من الفرق بين ما أخذ وبين ما كان يتوقع.

وهاك بالضبط وصف جلسبي **Gillespie** لما يحدث: أهم أسباب القلق العصبي مواصلة العمل مع عدم الراحة، والمتاعب الجنسية، واضطراب العواطف، مع وجود ميل إلى التشاؤم، وميل عام للتبرم والخوف وعدم الثقة بالنفس وشيء كثر من الطموح والحساسية والخجل والتحفظ وعدم الميل والاختلاط الاجتماعي.

هذا وصف عام، يضاف إليه صور أخرى في النساء فيحدث ما نسميه باهستريا– "روح تمثيلية مسرحة، بحيث تريد أن تكون المرأة دائماً وسط المسرح، وهي دائماً غير ناضجة، وعليها طابع الطفولة، وتضايق من يكون من حظه أن يرتبط بها، أما عاطفتها الجنسية فعاطفة الطفل نحو أبيه وغالباً تكون فاترة".

فإذا أضيف إلى الصورة العامة شعور بالعظمة مع منطق منظم وخيالات مرتبة فهذا هو ما تكلمنا عنه بال **Paranoia**.

وإذا كان المريض عنيداً شديد الحساسية مركزاً اهتمامه حول محور نفسه، كثير أحلام اليقظة بحيث يصير المنطق تافهاً وغريباً فهذا ما يسمى الـ **Schizophrenia** ويقول **Bleur** إننا جميعاً مجانين من هذه الناحية

Schizoids فإذا زادت الحال سوءاً صارت مرضاً حقيقياً وتزيد الحالة سوءاً عندما يزيد التوتر، حتى يختل التوازن العقلي وينهار النظام النفساني انهيار القلب عندما يأخذ في الهبوط، وكثيراً ما يسرع التدهور إذا أصيب المريض بمرض من الأمراض المعدية، فعندما تنهار الذات يكون ذلك الانهيار في درجات فإن انفصال الذات عن الذات العليا "الرقيب أو الـ **Super Ego**" قد يكون بسيطاً وهو الذي يحدث في القلق العصبي العادي، وقد يكون انفصالاً تاماً وهو ما يحدث في **Schizophrenia** الشيزوفرينيا، وأما الجنون **Psychosis** فهو تشقق **cleavage** في الذات والذات العليا تشقق عميق، مصحوب بتراجع باطني نحو الماضي **regression**.

هذه مقدمة موجزة لعلم النفس الطبي تبين الفوائد التي يجنيها الطبيب من دراسته لعلم النفس البحت ثم من دراسته لمذهب فرويد.

وسيرى القارئ في غير هذا الباب تفصيلاً وافياً لما أوجزناه الآن.

سيكولوجية الأخلاق

Psychology of Character

تكلمنا في المقال السابق عن "الدافع" **impulse** وذكرنا ما سميناه بدافع المجتمع، وما سميناه بدافع إرضاء الذات، وذكرنا كذلك أنه لابد لتفهم حالة ما من دراسة الشخصية بحالها، ودراسة تفاعلها مع البيئة ولابد من تتبع تاريخ تلك الشخصية منذ الطفولة، ثم امتداد ظل هذه الطفولة حتى الدور الذي نسميه المراهقة **adolescence**.

ففي هذا المقال سندرس كيفية تكوين الخلق سيكولوجياً ونعني بالخلق –سيكولوجياً– الشخصية، ما دامت الشخصية هي خلاصة السلوك الإنساني، **Behaviour** وما دام الخلق هو ذلك السلوك ممثلاً في كيفية "الفعل" بما في ذلك الحركات والإيماءات والأوضاع والاتجاهات.

وفي المقالين الذين يليان هذا تفصيل لسيكولوجية الطفولة وسيكولوجية المراهقة **adolescence**.

إذا أردنا أن نعرف أخلاق شخص على حقيقتها وجب علينا أن نرى ماذا يصنع. إننا نتوقع أن يفعل الشخص كما يقول، ولكن الواقع غير ذلك فكم من كلمات جميلة تستر فعلاً قبيحاً. على أن كلمة "يصنع" يجب أن تشمل الحركات والإيماءات والتعابير والأوضاع والاتجاهات وباختصار، كل العوامل التي تؤدي إلى سلوك خاص، فكل سلوك هو في طبيعته نوع

من الخلق. قال جيته لتلميذه اكرمان: إذا سمعت رجلاً يتحدث ربع ساعة دعه يتحدث ساعتين. أي أنه بعد ربع ساعة يمكنه أن يتنبأ بسلوك الرجل فيما بعد. أما الفكرة الشائعة من ضرورة اختبار طويل فمنشؤها قلة إدراكنا وعدم استطاعتنا تمييز الخصائص الهامة بسرعة. فالصواب أن هناك عاملاً مشتركاً- يجب أن نلم به، ويجب أن ندرك أن كل عمل يستلزم حركة ما، وكل عمل ذاتي يؤثر حتى في الأشياء الغير ذاتية **ono ego** فالفعل على ذلك الوصف مجرد علاقة وله على ذلك طرفان مبدأ ونهاية، بعكس الإدراك فإن له طرفاً واحداً، يبدأ في غير الذات، ولا تقتصر الأشياء الغير ذاتية على الأشياء المنظورة أو المحسوسة بل يدخل في ذلك عالم الأفكار والقيم والحقائق، والدنيا التي حولنا تتغير بالحكم والاتجاه والإحساس لأن هذه الأوضاع تدخل الأفكار في عالم "الفراغ- الزمن" ولنبسط الأمر أكثر من ذلك فنقول أن المدركات تهجم على "الذات" التي تجيب عليها بفعل ما، وحيث أن هذا الفعل يغير العالم غير الذاتي فهو يهيئ الفرصة لإدراك جديد، ثم فعل جديد وهكذا.

إذا خيل لنا أن كل شخص ينفرد بخاصيته ومميزاته وأنه في ذاته وحدة مستقلة فيجب أن نؤمن أن هناك عاملاً مشتركاً أو عوامل مشتركة بين الجميع يتضح منها أن الإنسان إنسان. ذلك لأن الإنسان منحدراً من الحي والجماد ومن الطبيعة، ومما وراء الطبيعة، كل هؤلاء يتدخلون في تكوينه فعلى ذلك يتشابه السلوك الإنساني عندما تتشابه الظروف وتكون الاستجابة لعامل أساسي في الطبيعة الإنسانية. ويمكننا على ذلك إدراك العناصر الأساسية عندما نرى تفاعلاً متشابهاً "متكرراً" عند ظروف

متشابهة، وبعد ذلك يمكن استخلاص الخصائص الذاتية "الغير متكررة" وفصلها من الأولى.

إثبات الذات

إثبات الذات هو أول الخصائص الإنسانية المشتركة في جميع الناس وهو خاصية تتوقف على "الوعي" وعلى مركز الإنسان في الدائرة التي تحيط به، ونخص بالذكر "المجتمع" وحتى علاقة الإنسان بعالم الفكر والقيم لا تتيسر إلا عبر هذا "المجتمع" وحتى علاقته بما وراء الطبيعة مستحيلة إن لم يمهد لها عن طريقه. ويرمي إثبات الذات إلى جعل هذه الذات "حقيقة مطلقة" وهذا مستحيل موضوعياً، وإن كان ممكن التنفيذ ذاتياً، فإذا اتحد إثبات الذات بالمحافظة عليها تكون من ذلك صفة إرادة القوة **will to power** التي ابتدعها نيتشه واستعارها آدلر في كتابه السيكولوجية الفردية **individual Psychology** ولا نزاع في أن تلك الخاصية أساسية في الطبيعة الإنسانية، في حياة الإنسان والجماعة ولو أنها تبدو أحيانا تحت ستار خداع ينخدع به أمهر الناس. وسنبين تلك الأزياء المزيفة أثناء بحثنا، ولولا الحدود والسدود المفروضة على تلك الخاصية بالقوانين والتقاليد التي تنظم المجتمع لاندفعت في سبيلها بلا توقف. ومن المهم أن نعرف أن تلك الحدود والسدود لا تميت تلك الخاصية بل تستثيرها دائماً والواقع أن تلك المقاومة هي التي خرجت بالإنسان من درجة الهمجية إلى درجة الحضارة، والقوة هي الطريقة البدائية الأولى التي بها قابلت إرادة إثبات الذات كل عقبة في طريقها.

على أنه لابد لهذا "الميل" إلى المحافظة على الذات من "دافع" فما هو هذا الدافع؟ هل هو شيء ملموس مستقل الكيان؟ كلا. فإن الدافع أو الغريزة كما يسميانه في علمي الحياة والنفس شيء "فرضي" يعادل كلمة "القوة" في علم الطبيعة وليس من ملموس ولا واضح ولا موجود غير نتيجة ذلك الدافع أو تلك القوة– وهو "السلوك الإنساني". وهناك من الباحثين من يتكلم عن ذلك الدافع كمستودع للقوة متأهب دائماً، وضعف هذه النظرية هو في افتراض وجود الحافز مستقلاً عن الذات الإنسانية، ولا داعي مطلقاً لافتراض هذا الاستقلال الحافز نفترض له كياناً قائماً بذاته، فما هو إلا "كالمنعكس" **reflex act** الذي يعرفه دارسوا علم وظائف الأعضاء، مثل الفعل الانعكاسي الذي يحدث من قرع الرباط المتصل بالركبة **Knee jerk** وكذلك المنعكس الحادث عند تعرض شبكية العين للضوء.

فتلك الحركات الانعكاسية طبيعية مادام القوس الذي تسير به سليماً وطبيعياً ولا داعي لافتراض شيء جديد.

على أن الفرق بين الدافع والعمل الانعكاسي، هو أن الدافع قد يجيء من الداخل كدافع التغذية، ودافع إسراع النبض لأسباب متعددة، وغير ذلك، على أنه من جهة الوصف لا فرق بين ما يحدث في الدافع والحركة الانعكاسية، وإن كنا نرى الدوافع أكثر تعقيداً، وقد تكون مركبة من عدة حركات انعكاسية معاً.

ولا نستطيع أن نوقن هل اختلاجات الذبيح منعكسات ألم أو دوافع

للهرب، أو للمحافظة على الحياة، أو مزيج من كل هذا؟ على أننا يجب أن نلاحظ أنه بينما الحركات الانعكاسية خارجة عن اختبارنا ،فإن الدوافع تصدر عن طريق الوعي، وفي هذا اعتراض على مذاهب السلوكيين **Behaviorists** الذين ينقلون تجارب الإنسان المتعلقة بالوعي إلى عوالم حيوانية محضة.

وقد يكون الأقرب للمعقول أن نقول أن الدافع يحتل مكاناً وسطاً بين المنعكسات والإرادة، أو يكون هو المرتبة الأولى للإرادة، والدافع وإن يكن يصدر عن طريق الوعي فهو غير اختياري أيضاً وسبب ذلك أن أساس الحياة إشباع الرغبة أو تحقيق الغاية، ويقول الهيدونيون أنصار مذهب اللذة، أن الغاية إحداث السرور ولما كان في تحقيق الرغبة سرور، فيمكن إدماج الرأيين في شيء واحد. كما قال بهلر "السرور من إدراك الوضع الطبيعي" والصحيح أن كل دافع يتجه نحو وضع منتظر يراد تحقيقه فما هو هذا الوضع أو الاتجاه؟

لابد لكل دافع من هدف، وهذا الهدف يتمثل للمخيلة كأنه أمر جدير بالاهتمام وبهذا يتكون "مركب العمل" وهذا الهدف هو دائماً ما له قيمة حيوية، وعلى ذلك ليس له أكثر من قيمة ذاتية أو عضوية وبمقدار ما تتمثل الأهداف، بمقدار ما يتخذ الدافع الطريق إليها ولذلك كان الدافع غير اختياري بالنسبة لمركز هذه الأهداف في الجزء غير المفكر من الإنسان، وهذه الأهداف تتمثل بشكل بارز واضح في المخ، وقيمتها الاقناعية تتوقف على أن قيمتها الواقعية قد لا تتناسب مع القيمة الحقيقية في سلم الحقائق، ومع ذلك يعطي لها من التقدير أكثر مما للأشياء الأخرى

الموضوعية لسبب لا نعلمه. على أن "القوة" شيء يتصل في الواقع بغير الذات "**Non ego**" وعلى ذلك لا يمكن أن تكون هدفاً للدافع المحض. وعلى ذلك فإن القوة جزء مخصص أو أكثر من الدافع غايته إثبات الذات أو المحافظة على الحياة وذلك ناشئ من أن الشخص ليس جسماً فحسب بل هو كما قدمنا مزيج من العناصر الأربعة التي تحيط به ولذلك لا يمكن أن يكون به دافع محض خالص بل لابد من شيء من ذلك متخصص ليتفاعل مع هذه الأشياء، وهذه هي الإرادة، ونفهم من ثم علاقتها بالدافع.

ويمكن القول إطلاقاً أن هذا "الدافع" هو الأساس للأفعال العليا فالأفكار الراقية نتيجة لصورة منظورة، وتتوقف على التعبير بواسطة الكلام الذي هو وظيفة جسدية فليس إذن من سلوك إنساني ألا وهو ناتج من تلك العناصر المندمجة معاً.

إرادة القوة

إننا نعلم أن الوسط الذي يحيط بالإنسان هو أفراد المجتمع فإرادة القوة موجهة نحو هؤلاء وقد أثبت التاريخ أن هذه الصفة أزلية. ولقد ذكرنا سابقاً أن إرادة القوة شيء بدائي إذا تركت لحالها انطلقت بلا قيود، على أن هذه القوة تصطدم بالمجموع أولاً ثم بعوامل في النفس الإنسانية تحد من سلطانها منها "إرادة المجتمع" **the will to society** ثم بعوامل أخرى سيأتي تفصيلها تمنع انطلاق إرادة القوة انطلاقاً غير محدود. فلندع جانباً الحديث عن العوامل الخارجية فأمرها معلوم. كالتقاليد والعادات والقوانين،

والعقبات الطبيعية، ومادامت إرادة بدائية فهي على أتم صورة في الطفل فلنبدأ بدرسها هناك لنعلم ماذا يقويها، وماذا يضعف من سلطانها..

الحياة النفسية للطفولة الأولى

نتكلم الآن عما يعترض إرادة القوة في الطفل فهذه الإرادة تصطدم من أول الأمر بعقبات لا حيلة لنا فيها، فهي عقبات ملازمة لحالة الطفولة وهذا بيانها:-

"١" صغر حجم الطفل: أن الطفل ينظر إلى أهله الكبار كما ينظر الإنسان إلى أعلى شاعراً بقلته وضآلته.

"٢" ضعف الجسم في الطفولة: إن هذا الضعف طبيعي في ذلك السن الباكر.

على أن الكبار كثيراً ما يشرون إلى هاتين العقبتين في أحاديثهم فيزيدون الطفل شعوراً بذلك.

"٣" لا تستند معلومات الطفل إلى شيء ثابت: أن الطفل يكون معلوماته بالمقابلة والتعميم فإذا عرف أن معدن الذهب أصفر أعتقد أن كل أصفر ذهب، فإذا اتضح له أن النحاس أصفر وهو ليس بذهب، فجع فيما كونه لنفسه من المعلومات.

"٤" الطفل لا يؤمن بنظام ثابت للكون: والسبب في ذلك طريقة التعميم التي يتبعها في جميع معلوماته. فإذا وجد أن كوبه سقطت فكسرت أعتقد أن كل كوبة تقع لابد أن تكسر، فإذا لم تكسر تقلقل يقينه

وارتد إلى الشك في النظام الكوني.

فخلاصة كل ذلك أن هناك نوعاً من قلة الاطمئنان وعدم الاستقرار.

هذه عقبات غير واعية، وهي في طبيعة الطفل، ومن هنا ندرك أن سقم رأي الذين يقولون لابد من كسر إرادته، فإنها مقيدة مغلولة من البدء، فالمهارة إذن في توجيه تلك القوى توجيهاً صالحاً، مع الاجتهاد في إزالة ذلك الشعور بعدم الثقة والإيحاء والاطمئنان والاستقرار. فكل ما يزيد الشعور بعدم الاطمئنان يزيد الشعور بالنقص، ويقلل من قيمة الشخص في نظر نفسه، وكلمة الشعور "بالنقص" **Comcplex Infeiriority** شائعة جداً في هذه الأيام، وأول من ابتدعها الألمان وأما كلمة الشعور، فالاعتراض عليها يتوقف على أنها لابد أن توجد مع مقياس أو مقارنة لأحد أو لشيء، وفي حالة الطفل يكون ذلك الإحساس غامضاً، فليس من الدقة في شيء أن نسميه شعوراً، ولكن كلمة "النقص" وافية جداً بالغرض وتؤدي المعنى أحسن تأدية.

ولقد بينا أن ذلك الشعور بالنقص يحدث إما في التكوين الجسمي أو من البيئة وما تتخذه تجاه الطفل.

التكوين الجسمي

إن ما نسميه "البنية" شيء ثابت الصفة، ولكن البنية لها علاقة وثيقة جداً بالخلق وقد ذكر ذلك في كتاب البنية والخلق لريتسمر وأكده غيره من الباحثين ولكنا نتساءل؟ ما دامت البنية ثابتة كما ذكرنا وجب أن يكون خلق الشخص ذي البنية الخاصة موافقاً لبنيته، وما دامت البنية لا تتغير

فالخلق لا يتغير أيضاً.

الواقع أن البنية والخلق لا يمشيان في خطين متوازيين، بل في خطين متشابكين. بدليل أن العلاج بالتحليل النفسي أمكن أن يغير من أخلاق خاصة لبنية خاصة، وبدليل أن في أمراض الغدة الدرقية وهي التي تطبع الخلق بشكل خاص نجد أحوالاً تختلف في الخلق اختلافاً بيناً.

فالجسم والروح وحدة لا تتجزأ، وليس من الصواب أن أقول أن الجسم "يسبب" حالة خاصة في الروح بل الصواب أن نقول إن "ظرفاً" خاصاً حدا بالجسم إلى وضع خاص أو عمل خاص أو اتجاه خاص، ونحن في مخيلتنا لنا شعور بحقيقة أجسامنا وأوضاعها واتجاتلكا بل أننا نشعر بحدود قوة هذا الأجسام، فالواحد منا قد يقول ذات يوم "إني لا أستطيع!" ما معنى هذا؟ معناه مثلاً إن الشعور بالتعب أو الملل، ما هو إلا أن الجسم وهو الآلة التي يعبر بها الإنسان عن إرادة القوة وإثبات الذات بلغ الحد الذي عنده يقف، معناه أن عندنا "وعي حيوي" يصبغ حركات أجسامنا كما يصبغ تجاربنا وأعمالنا ودوافعهم.

من هذا نستخلص أن الضعف الجسدي، والشذوذ المتعلق بالبنية يرتسمان في الوعي "كحدود" وهذه الحدود تقلل من ثقة الإنسان بنفسه، وتؤكد له عجزه عن الكفاح وبالتالي تثبت له نقصه.

وعلى هذا يتضح أن كل أنواع الشذوذ الخاصة بالبنية تؤثر في تكوين الحلق، وعلى ذلك فكل الأطفال الذين في بنيتهم ضعف أو شذوذ يحتاجون لعناية خاصة، وبالأكثر يحتاجون لطبيب يعالجهم نفسياً كما

يعالجهم جثمانياً.

التعويض Compensation

التعويض لفظ ابتدعه آدلر في السيكولوجية الفردية وهو لفظ بالغ الأهمية في سيكولوجية الخلق بل أن كل السيكولوجية الفردية تقوم على فكرة التعويض وأهمية الفكرة قائمة على أنها توحد الصلة بين الجسم والنفس والخلق. وهذا هو تعريف التعويض نقلاً عن آدلر "إذا وجد عضو ما من الجسم في حالة تقصير، فإن الجسم يحاول أولاً أن ينبه هذا العضو ويزيد في نشاطه، فإذا لم يجد ذلك، أخذ الجسم يقوي عضواً آخر متصلاً بالعضو المقصر، حتى تصير النتيجة تعويضاً أو فوق التعويض".

هذا ما يحدث في الجسم، وهو بالضبط ما يحدث في عالم النفس والخلق فإن ظرفاً خاصاً يطرأ على النفس الشاذة أو المقصرة أو الضعيفة فترتسم حدود التعجز أو النقص في المخيلة فيكون أول حافز هو بث النشاط في إرادة القوة، لتنهض بالعبء المطلوب حمله، فإذا أمكن ذلك فكفى وإن لم يمكن تحتال النفس بطرق أخرى للحصول على التعويض أو ما يفوق التعويض، والغالب أن يكون التعويض في ذات النقص، فإذا لم يمكن فإنه يتحول إلى دوائر أخرى.

نذكر على سبيل المثال من يتكلم بصوت عال دائماً إننا نعرف ولا شك كثيرين يرفعون أصواتهم بلا داع ،وخصوصاً الأطفال فأولئك يحاولون إثبات ذاتهم أولاً بالطرق العادية، وأخيراً يحاولون لفت النظر عن طريق رفع الصوت.

ولما كان النقص الجسدي، كثيراً ما يؤدي إلى التفوق الفكري. كما نعرف في كثيرين من الأبطال والنوابغ فإننا نفهم أهمية فكرة التعويض في تقرير أن الجسم والنفس يكونان وحدة ثابتة.

وأهمية "التعويض" عظيمة جداً من ناحية التربية ولقد ذكرت إيللا لينش في كتابها "الطفل والبيت" يجب أن يوحي لكل طفل بهذا "لست مجرد شيء إني شيء ذو قيمة، قد لا أستطيع أن أعمل كل شيء، ولكني أستطيع أن أعمل شيئاً على كل حال".

يجب أن نحفر هذا المبدأ في ذهن كل مرب ووالده وقد حان الوقت لترك طرق التربية العتيقة التي توحي للأولاد العجز واليأس. حان أن يحذر الوالد التحدث أمام أولاده عن الشك في المستقبل، وعن صعوبة العيش وعن قصر الحياة الخ..

عوامل خارجية تؤدي إلى الشعور بالنقص

لقد تكلمنا فيما سبق عن العقبات الطبيعية التي تؤدي إلى إضعاف إرادة القوة، ويمكن أن نصفها بأنها كلها سلبية. والآن نتكلم عن عقبات إيجابية تتعلق بالوسط والبيئة. وسيتضح من هذا الحديث أن ٩٠ في المائة من أحوال الشذوذ والضعف الخلقي، والأمراض العصبية الشائعة كالهستريا والعقائد الثابتة **obsessions** الخ. هي من أخطاء الوالدين والمربين والمعلمين.

إن من أهم تلك العقبات مركز الطفل في الأسرة "ولد وحيد أو الأكبر أو الأصغر" وجنسه أذكر أم أنثى، فقد اتضح من الإحصاءات والمراجع أن أكثر المرضى بالأمراض العصبية ذوي مراكز خاصة بالأسرة بالنسبة للوالدين والإخوة، حتى قيل أن أكثر المرضى بالهستريا نساء لأن مركز الأنثى في العائلة يختلف عن مركز الولد. وأخطاء المربين تتلخص في عدم المساواة بين أفراد الأسرة. كالمحاباة والقسوة بلا مبرر أو التساهل بغير داع، أو التردد بين الشدة واللين وأخيراً القدوة السيئة من جانب هؤلاء وأخيراً جعل كبار الأولاد مشرفين على صغارهم.

وقد يجد الوالدان مبرراً للتساهل كأن يكون الطفل مريضاً أو ضعيف البنية ولكن هذا العذر غير مقبول.

وأخيراً هناك اليتيم، وابن الزوجة أو الزوج، وابن المطلقة. فهؤلاء كثيراً ما يعاملون معاملة خاصة تؤدي إلى كل ما نراه من الشذوذ والاعوجاج فيما بعد.

ما هي الأخطاء التي ترتكب عادة؟

"١" التناهي في الشدة.

إن التناهي في الشدة يحطم إرادة القوة ويخرج للعالم عجزة في الفكر وكسيحين في الكفاح. على أننا نسمع معترضين يقولون بل أن التناهي في الشدة خير مثال فإن الولد يعود الطاعة، والتلميذ في المدرسة يعود احترام النظام، فأما تعود الطاعة فأكثره عندما تكون القسوة بالغة ضرب من النفاق والخوف والجبن، أما الذين ظفروا في المدارس بالنظام على حسب القسوة فما يعلمون مصير الذين خضعوا للنظام، بعد المدرسة وفي الحياة أنهم تتبعوا خطواتهم في الدراسة وفقط لم يتبعوها فيما بعد.

لا يستلزم أن تكون الشدة مبنية من طريق العقاب البدني، بل أن هناك شدة أكثر سوء وأنكى. ألا وهي الشدة التي تباعد المسافة بين المربي والطفل، وتكون مبنية على ازدراء الطفل واحتقاره وتجاهل طبيعته وهذا الضرب من الشدة ينشأ من جهل معنى "السلطة" فإن كثيرين من أرباب السلطة والنفوذ يخلطون بين أشخاصهم وبين الواجب المفروض عليهم. فإن السلام العسكري لا يؤدي عادة إلى الضابط شخصياً ولكن لرتبته. فيجب أن يدرك كل ذي نفوذ إن الامتياز والقوة والسطوة، ليست منحة لشخصه بل للمهمة الموكلة إليه. وليس أردع في التاريخ من قصة "لوسياس سلا"

الذي أعاد الهدوء والدستور إلى روما، ثم تنازل عن عرشه القوى، مختاراً. ولكن حب السلطة مع الأسف ثابت في النفس الإنسانية منذ الأزل ومن هنا يستطيع أن يسلم من مغرياته ومفاتنه.

لا يمكن أن تحترم السلطة، ولا أن تدوم، بفرضها فرضاً على أحد وخاصة على نفس طفل برئ.. لا شيء غير الحب والعطف يمكن أن يديمها ويضمن احترامها. إن أكثر الناس يسيئون استعمال السلطة لأنهم أساءوا فهمها، ولو دققنا في بحث هذا الأمر لوجدناه مبنياً على غرورهم وإعطاء ذواتهم قيماً مبالغاً فيها.

فإن الزعيم الذي يعرف مقدار قوته، ويؤمن بحقيقة نفسه عن يقين لا عن خيال، لا يحتاج للتظاهر بالسلطة فإن هذا ضعف يلبس قناع القوة. على أن الطفل من عادته أن ينظر لوالديه أو لمربيه نظرة مثالية فإذا اتضح له يوما أن هذا المقالي لم يحقق ظنه فيه، ازدادت الهوة بينهما اتساعاً، وقل إيمان الطفل بالبطولة المتخيلة فينعكس هذا الشك على ذاته وتضعف إرادة القوة عنده.

لا نعني بهذا ترك العقاب جانباً إلا أنه لا تربية ولا تهذيب بغير عقاب ولكن كيف يتم ذلك بدون أن تتقلقل نفس الطفل سيكولوجياً؟ متى يكون العقاب مفيداً؟

"١" يجب أن يكون العقاب عادلاً. ومناسباً وهذا العدل وهذا التناسب يجب أن يقدرا من ناحية الطفل الذي يجب كذلك أن يعرف أنه عوقب لأنه أذنب بوعيه واختياره فإذا لم يكن أذنب عارفاً فلا داعي

للعقاب وخاصة عندما يذنب الطفل أول مرة.

"٢" نعرف من دراسة سيكولوجية الطفل "انظر بعد" أن الطفل يعيش في الحاضر وأن فهمه للزمن مخالف لفهم الكبار فإذا عاقبناه عن حادثة معينة عقاباً ممتداً حار في تعليل ذلك لأنه في حسابه "واحدة بواحدة".

"٣" القيم التي يخلعها الطفل على الأشياء وعلى مقاييس الحق والباطل تختلف عن إدراك الكبار لها فلا يجب أن يعاقب عقاباً مختلفاً إذا كسر مرة إناء غالياً ومرة أخرى إناء رخيصاً بل يعاقب لأنه كسره عامداً. لنفس الفعلة لا لقيمة الشيء الذي حل به التلف.

"٤" يجب أن يعرف لماذا عوقب وإلا فقد الثقة بالوالد أو المربي ويلجأ إلى الخداع والكذب. أو تتسع هوة الخلف بينه وبين ولي أمره ويتخلخل شعوره بالطمأنينة التي تلزمه تعويضاً للنقص الطبيعي الذي أشرنا إليه فيما سبق.

"٥" يجب ألا يقصد بالعقاب الإذلال والمهانة بل يجب أن نصحبه بالإشارة إلى الثقة بأنه في المستقبل لن يعود الطفل لشيء من هذا لأنه قادر على ألا يعود.

"٦" وهذه الثقة من الوالد بقدرة الطفل على التحسن لازمة من الجانبين من جانب الوالد لأن الاعتقاد بخبث الطفل خبثاً طبيعياً أو مكتسباً مبرر نتذرع به لاحتقاره أو لظلمه وأقل ما يسببه أن يباعد المسافة بيننا وبينه ومن جهته يجعله ينظر إلينا نظرة الشك ويتعلم الرياء والكذب

ويبادلنا احتقاراً باحتقار ولا يخضع لنا إلا نفاقاً أو خوفاً.

"٧" النتيجة الطبيعية لهذه الثقة بقدرة الطفل على التحسن أن لانتواني في الثناء على ما يحسن. ولقد يقال أن الثناء عليه يعلمه الغرور والزهو ولكننا نجيب على ذلك بأن هذا الغرور الناشئ من اعترافنا بقيمته أقل خطراً من تجاهله أو إنكار محاسنه وخاصة إذا تذكرنا ما فصلناه من العقبات "السلبية" الطبيعية التي تحطم إرادة القوة فيه فعلى ذلك يجب أن تكون لدينا وسائل "إيجابية" للنهوض به وتذليل العقبات الطبيعية التي لا حيلة لنا فيها.

ونعود فنؤكد أن كثيراً من صفات الغرور والتوقح والزهور تنشأ لا من الثناء بل بالعكس من التجاهل والإنكار تنشأ "كتعويض" كما لا من الثناء بل بالعكس من التجاهل والإنكار تنشأ "كتعويض" كما فصلنا عندما تكلمنا عن معنى التعويض في فصل سابق.

"٨" يجب أن تقترن هذه الثقة بمحبة طبيعية لانتواني في إظهارها كأمر طبيعي بعد أن ينتهي العقاب –ويجب أن ينتهي بسرعة– كأمر طبيعي كذلك. لا شيء يجعل للطفل قيمة عند نفسه أكثر من شعوره بأنه محبوب. لا شيء يمنحه الثقة والأمان والطمأنينة غير الحب الذي يبذله له الوالدان. ولا نعني بالحب ذلك الضرب من التدليل السخيف والألفاظ السطحية بل يجب أن يكون حباً يبدو للطفل كشيء موجه لقيمته هو ولحسن خلقه لا لشخصه فحسب.

ولقد يقال إن الحب المبذول للطفل قد يثير حاسة الجنس في سن

مبكر لقد اتضح من دراسات فيزيولوجية أن العكس هو الصحيح فإن "الخوف" يدفع الدم من البطن والحوض إلى الأعضاء التناسلية ولذلك يقترن الخوف بالتنبه التناسلي. وكل حالة تشبه الخوف أو يتفرع منه تحدث نفس التنبيه ولقد يعاب على الحب والعطف أنهما قد "يفسدان" الطفل. ولكنا نؤكد أن كل الغلطات ممكن تداركها إلا غلطة واحدة: تلك هي غلطة العطف الضائع والحنان المفقود. لا شيء أبعد عن الإصلاح من غلطات مسببة عن حياة مقفرة من الحب في الطفولة. أن الطفل الصغير ليس لديه ما يعطينا غير حبه وينتظر أن نبادله إياه فإذا تجاهلنا هديته لنا واحتقرناها سحقت زهرة الكرامة عنده وذبلت– مدى حياته.

هذا ما يختص "بإرادة القوة" وهي العنصر الأول في تكوين الخلق. ولقد تكلمنا عن كيفية نشوئها في الطفولة والعوامل التي تعترض نموها والوسائل التي تقوى بها وإنما اختصصنا الطفولة بهذا الحديث، لأننا نعلم من تقارير المعلمين أن إصلاح الخلق صعب أو مستحيل بعد سن الخامسة. أي أن البيت هو كل شيء. حقيقة أن التحليل النفسي يمكن أن يعالج مشكلات كثيرة ويقوم اعوجاجاً كبيراً ولكنه يعالج عقداً نشأت في الطفولة كأن من السهل أن لا يكون لها وجود لو أن الوالد ألم بنفسية الطفل وعرف كيف يوجهها. وسنعود إلى ذلك في الفصل الخاص بسيكولوجية الطفولة ولكننا الآن سنتحدث عن العنصر الثاني في تكوين الخلق وهو إرادة الجماعة **will to Society**.

ولكن قبل الدخول في هذا الباب نقول أن الطفل تسيطر عليه دوافع ثلاث: "١" المحافظة على الحياة "٢" الجنس ويتفرع من هذا "٣" المجتمع

إذا اعتبرنا أن الجنس ما هو إلا إعداد للمجتمع وأن الحضانة الطويلة مع الأم –وهذه ميزة الإنسان على الحيوان– إعداد حقيقي "للغريزة الاجتماعية" Social instinct.

إرادة الجماعة

WILL TO SOCIETY

إن للسيكولوجية الفردية **Individual Psychology** التي رفع لواءها أدلر فضلاً كبيراً في تفصيل ما لإرادة الجماعة من أثر هائل في تكوين الخلق. ولقد دعاها أدلر "الإحساس بالجماعة" والواقع أن كلمة الإحساس بالجماعة لا تؤدي المعنى المطلوب فإن هذا الدافع الخطير في حياة الإنسان، وقد نعده الدافع الثاني هو إرادة بكل معنى الإرادة. هو الواقع الذي عن سبيله صار الإنسان إنساناً، وتميز به عن الحيوان فلقد يكون للحيوان "إحساس" بالجماعة. وهو ما نسميه غريزة القطيع. ولكنه يختلف اختلافاً جوهرياً عن إرادة الجماعة.

ولقد قال أرسطو أن الإنسان "حيوان سياسي" وتكلم بعده كثير من الفلاسفة عن حاجة الإنسان الاجتماعية وأثرها في تكوين شخصيته وخلقه، وقال غيره بأن الإنسان "ابن الوسط" ولكن أدلر هو الوحيد الذي:

"١" حدد بالضبط معنى إرادة الجماعة، وبذلك لم يجعلها كإرادة القوة. والمحافظة على الحياة، صفة بيولوجية عامة في جميع المخلوقات. بل جعلها خاصة بالنوع البشري وقاصرة عليه وهذا هو التعريف الذي وضعه أدلر لإرادة الجماعة، وهو كما سيرى واضح وموجز وبليغ.

إن الإنسان قادر على تكوين الجماعة ومنظم لوجوده وفق حال هذه الجماعة.

"٢" أجهز على فكرة أن الإنسان "ابن الوسط" إن هذه الفكرة تشير إلى أن الجماعة أو الوسط هي كل شيء، منكرة ما لإرادة القوة وإثبات الذات من الأثر في جعل الشخصية وحدة قائمة بذاتها وكيانها. إذ الواقع أن إرادة القوة تكون الشخصية وتجعلها شيئاً ذا قيمة تتفاعل مع شيء آخر ذا قيمة وهو الوسط، ولكن الوسط شيء مائع متموج كالبحر، وليس بصحيح أن الإنسان سمكة في ذلك البحر. بل الصحيح أنه مرفأ قائم على شاطئ البحر يتلقى أمواجه ويتفاعل معه.

التفاعل بين الإنسان والوسط قائم على "الحب" وعلى الحب وحده في أي شكل من أشكاله. على شرط أن لا يفقد الحب شخصيته وأن لا يغرق في غمار الوسط ضائعاً في زحامه وإلا ابتلعه الوسط وقضى عليه ويعكس ذلك إذا امتنع التبادل بين المرء والوسط زالت الروابط الثقافية وانحلت الحضارة على أنه قد يخيل للقارئ أن هناك إرادة للقوة منفصلة عن إرادة الجماعة، منفصلة عن الدوافع الثانوية الأخرى فإن الإنسان ليس مكوناً من "أجزاء" كل على حدة، فإن الوصف هو الذي يدعو لهذا التفصيل. بل الواقع أن الإنسان مجموعة من الدوافع المتشابكة والعوامل المتناقضة، منضمة لبعضها تحت ضغط من كل الجوانب. فإذا صح تعريف القوة الخالقة بأنها "وحدة متحررة من الضغط" فإن الإنسان "قوى متحدة تحت ضغط" فمن ثم يتضح أن التوازن بين الإرادتين، إرادة القوة وإرادة الجماعة هو الذي له الأثر في تكوين الخلق الفردي والاجتماعي، وعليه

المعول في تحديد السلوك الإنساني.

قال فاورباخ إن كلمة "أنا" لم توجد لها أهمية إلا عندما وجدت كلمة "أنت" –حتى روبنسون كروزو الذي كان "أنا" في الجزيرة القاحلة، ما كان يمكن أن يكون كذلك لولا ما أخذه وعلمه من "أنت" قبل أن ينزل الجزيرة– والواقع أنه لا ثقافة ولا مدنية من غير أنا وأنت والعلاقة بينهما– فالإنسان لا يتلقى شيئاً عن نفسه بل عن غيره ولقد ذكر مارك توين في كتابه "ما هو الإنسان" أن الإنسان حيوان ناقل عن غيره. وناقل لغيره.

والحقيقة أن الإنسان. يفهم نفسه ويشعر بوجودها بعد أن يفهم ويشعر بوجود غيره.

كما قال شالر: أليس من الواضح أن الطفل قبل أن ينطق وقبل أن يتكون له شعور بذاته، يدرك شعور الآخرين نحوه، ويجيب عليه بابتسامة أو عبوسة قبل أن تتكون ذاته وينمو فكره، ويصير لنفسيته كيان وشأن.

قلنا في فصل سابق إنه كلما كبر الطفل كلما شعر بعقبات طبيعية "فصلناها في مكانها" تشعره أن لا يستطيع وحده تحقيق أمانيه. أو كما ذكرنا يعتريه شعور طبيعي بالنقص يحد من كبريائه ويحد من جبروته فإذا احتضنته "الجماعة" وبادلته حباً بحب وعطفاً بعطف سيتضح شيئان:

١" تخف حدة الكبرياء المثلوم الحد لأنه سيعرف أن هذا الكبرياء المقيد العاجز صفة عامة في الجميع.

٢" أنه بمعاونة هاتة الجماعة التي تحبه وتعطف عليه قد يستطيع أن يحقق من الأماني ما استعصى عليه وهو منفرد وحيد.

٣" سينقلب هذا الكبرياء "فضيلة" إذ يصبح "تواضعاً" أو على الأقل تسليماً بحقوق القوة الممنوحة للإنسان. أو على الأقل اعترافاً بأنه لا يمكن تحقيق الأماني والمطامع بغير التضامن والعطف والمحبة..

ولقد ذكرنا فيما سبق أنه لا بد من توازن الإدارتين، ليكون سلوك الإنسان معقولاً وطبيعياً. فلننظر الآن في العوامل التي تخل بهذا التوازن.

يلاحظ القارئ أننا نتكلم عن العوامل في الطفل ولم نتحدث عن الرجل في شيء.

لماذا؟ ألا يمكن تقويم الأخلاق في الرجل؟؟ وماذا تصنع المدارس؟

وماذا تصنع العوامل الثقافية والتهذيبية التي تقوم بها الحكومة وغير الحكومة؟ لقد ثبت ثبوتاً قاطعاً، أن الخمس سنوات الأولى هي الكل في الكل في حياة الإنسان، وعندما يذهب الطفل إلى المدرسة يكون "سلوكه" قد اتخذ شكلاً يكاد يكون نهائياً– أو كما قال جيته "الطفل أبو الرجل"! قلنا في فقرة سابقة إن الطفل عندما يشعر بالنقص يبدأ في "التعويض" والتعويض يكون نافعاً ومقبولاً لو بقي "تعويضاً" فحسب ولكن عيبه أنه ينقلب شيئاً "فوق التعويض" **Over Compensation** والتعويض في الطفل يكون عن طريق "اللعب والخيال وأحلام اليقظة" معنى ذلك أنه يحقق باللعب ما يريد أن يكون، يريد أن يكون "كبيراً" والواقع أنه يحاول أن يكون "كبيراً جداً" أما الخيال وأحلام اليقظة. فيمتد أثرهما للكبار، وعيبهما أن يتجاوزا منطقة التعويض، وأن يقترنا بالعمل. ولقد يكون ذلك العيب مستتراً كأن يدعو قوم "للعدل" وباطن هذه الدعوة الانتقام وما

أصدق القول الذي يقول: إن الأفكار المتناقضة قد تعيش معاً ولكن الحقائق تتزاحم تزاحماً مقلقاً ومادامت حقائق الحياة أكبر من الرغبات، فإن العيب ليس في الرغبة بل في الطلب. فالطلب في الواقع مساومة، جزاء يرجى لعمل. فالخطأ إذن هو في خلط الرغبة بالطلب. والطلب يقترن بالعمل والعمل يتطلب الجزاء. والجزاء كثيراً ما يخلف الظن، فإن الخيبة جزاء الطلب الذي لا يتناسب مع الواقع ويستتر وراء كل ذلك إرادة للقوة طاغية غير مصبوبة في قالب ولا محكومة بلجام. ولإصلاح هذا يجب أن يفهم الطفل أن مجرد إجابة الرغبات شيء غير جائز ولا متيسر وأن انتظار الجزاء دائماً شيء بعيد الاحتمال، وأن عليه أن يعمل الصواب والخير لأنهما صواب وخير سواء لقي جزاء يوافق رغبته أو لم يلق.

على أن الطفل لن يجد من رغباته شيء غير اندماجه في الجماعة، فإنه سيلقى من المواقف ما يجعله يؤمن بأن كثيراً من تلك المواقف تعجز حيلته فيها كما تعجز حياة البشر جميعاً، فلا يعود يشعر بعجزه شعوراً خاصاً مؤلماً بل ينحني أمامها كما قال جيته: انحناء شجرة البلوط أو الغصن الرقيق وفي الوقت نفسه يحتفظ بقيمته الشخصية وأن أمحت من أمام بصره "خيالات السراب الملونة على الضباب البعيد".

ولما كانت علاقة الإنسان بالإنسان ضرورية –وحتى الذي يكره الإنسانية إنما يؤكد العلاقة التي ينكرها، لأن الكره علاقة على كل حال، وقد تكون حباً مقلوباً– فإن الطفل يجب أن يدرك أهمية هذه العلاقة، يجب أن يعتادها كما يعتاد أي شيء آخر، يجب أن يتعلمها كما يتلقى علومه الأخرى ،فتصير إرادة الجماعة جزءاً من طبيعته وتقف بدورها موازنة لإرادة

القوة ومصلحة لها وكابحة لطغيانها والآن نذكر كيف نربي إرادة القوة وما هي العقبات التي تعترض تقويتها.

إن "الجماعة" في نظر الطفل هي الوالدان والأخوة والرفاق ثم ما يحسه وما يوحي إليه من وجود قوة سماوية خفية. أما العلاقة بالوالدين فقد ذكرنا كيف يجب أن تكون المسافة بين الطفل ووالديه قريبة أي لا يجب أن يعامل الوالدان أطفالهما بالاحتقار والمهانة والأوامر الصارمة. ولا يجب أن يجعلا للأبوة عرش ترفع.

وكذلك يجب أن تكون العلاقة بين الزوج والزوجة أما عيني الطفل قائمة على المحبة والمساواة والصفاء. إن الطفل عن هذا الجو يأخذ معنى الجماعة وفي هذا الوسط الصغير يتذوق طعم الوسط الكبير. وليكن واضحاً أن الطفل "يعشق" تلك الأشياء التي يراها، فالحب يصير شيئاً طبيعياً فيه إذا تلقاه عن العائلة "والجماعة" تصير شيئاً طبيعياً إذا أحس بمعناها في العائلة وتلك هي العوامل التي تعترض إرادة الجماعة.

١- كل العوامل التي تؤدي إلى إضعاف القيمة الشخصية للطفل. تجعله غير قادر على أخذ مكانه في الجماعة إذا سنحت له الفرصة.

٢- كل العوامل التي ترسم للطفل حياة الجماعة رسماً كئيباً أو تلقي عليها ظلاً قاتماً. لا تجعله يقبل فيما بعد على الاندماج في الجماعة.

٣- كل العوامل التي تفصل "الوسط الصغير" عن "الوسط الكبير" فإن الطفل إذا سمع من عائلته ذماً في العائلات الأخرى. وكلما ألقى إلى أذنه أن العالم شر كله. وأن الدنيا لا خير فيها وكلما كانت نصيحة

العائلة له أن يحذر الناس ويبتعد عنهم- كل تلك العوامل تحطم في الطفل إرادة الجماعة.

٤- كل العوامل التي توحي إلى الطفل أنه غير خليق بالجماعة كمحاباة إخوته الآخرين. وعدم الاهتمام بشأنه.

٥- كل العوامل التي تؤدي إلى سوء إعداد الطفل لحياة الجماعة -كإيثار الولد الوحيد والخوف عليه من الناس. ومن الطريق وتحذيره هو من "أولاد الجيرا" الخ- كل ذلك يؤدي إلى إخفاق هذا الولد المدلل عندما تسنح الفرصة لاندماجه في الجماعة ونتيجة الإخفاق كارثة رد فعلية على رأي جولدشتين. وهزات عصبية، وكثيراً ما تبدأ هذه عند دخول الطفل للمدرسة واندماجه في وجوه غريبة، من سوء تربية الطفل إغفال إعداده لواجبات يقتضيهما المجتمع فيما بعد ومن أهم الواجبات التي يجب تلقينه إياها. الإنسانية والمحبة وحب العائلة والإيمان والعمل. وقد تحدثنا عن كل ذلك إلا العمل. ما هو العمل؟ العمل نوع من التضامن وتعريفه الدقيق هو خلق قيم. تدوم بعض النشاط الذي أحدثها، فالعمل إذن ضرب من الخلق لشيء واضح القيمة، وإلا لا يعد ذلك عملاً. أي أنه لا يجب أن يكون العمل للذة زائلة، بل يجب أن يكون أثره نافعاً وباقياً، ومن هنا أهميته الاجتماعية فهو من أهم العوامل في تكوين إرادة المقدرة الجماعية، في الطفل، فيجب أن يوحي إلى الطفل أن عليه أن يعمل شيئاً، وبالأخص شيئاً ذا قيمة، فإذا قام بذلك شكرناه عليه وأثنيناه. فيصير العمل النافع عنده عادة فيما بعد، فلا يعد العمل إرهاقاً ولا تكليفاً بل ديناً يجب

أن يدفعه "للجماعة" بلذة وسرور.

ولا شك أن إعطاء الأطفال الصغار في مدارس الحضانة "أعمالاً" كالقيام بخدمة إخوانهم على المائدة إلى غير ذلك من أنواع الخدمات الصغيرة، إعداد جيد للاندماج في سلك الجماعة. وعلى ذلك لا يجب أن ننظر إلى البالغين الذين "يكرهون" العمل كمجرد كره. بل يجب أن ننظر لأبعد من ذلك– يجب أن ننظر إلى طفولتهم وكيف مشت وتطورت. فإن الطفل الذي ينشأ وقد تحطمت قيمته في نظر نفسه، لا يقبل على العمل، لأن العمل خلق شيء قيم، والخلق لا يصدر عن نفس فاقدة الشعور بالكفاءة.

من هذا يتضح أن كل أخطاء السلوك الإنساني في الكبر منشؤها التقصير في الموازنة بين الإرادتين إرادة القوة وإرادة الجماعة. وكل اعوجاج يمكن رده إلى خطأ في التربية في السنوات الأولى. ولقد تبينا فيما سبق كل العوامل التي تؤدي إلى إضعاف الإرادتين أو التوازن بينهما وفي الفصل التالي سنكمل بحثنا هذا بفصل عن سيكولوجية الطفولة.

المراجع:

1. Allir's Psychology of Character.
2. Adler's Individual Psychology.
3. Valentine Psychology of childhood.
4. Set Their Children Free.

سيكولوجية الطفولة

Psychology of Childhood

علمنا مما سبق أن الطفل يتم تكوين خلقه في السنة الخامسة، وأن هذا التكوين قائم على التوازن بين عاملين، عامل داخلي وهو غرائزه واستعداده الوراثي وعامل خارجي وهو الوسط وأهم ما فيه الوالدان.

ووظيفة الغرائز المحافظة على الذات أولاً، ثم المحافظة على النوع ثانياً، ويمكن تعريف الغريزة أنها "عادة موروثة" وبعبارة أخرى هي ما رسب خلاصة للتجارب الحيوية التي اكتسبها الإنسان من علاقته بالوسط، أي خير الوسائل وأجداها للتفاعل مع هذا الوسط حفظاً للحياة. فكأنما كل تجارب الأحياء قد غربلت وهذبت وروجعت فاستبعد منها ما لا فائدة فيه وبقى منها ما يضمن بقاء الحياة واستمرارها وانتشارها، فأعطى للطفل في صورة ما نسميه "الغريزة" ليستعين بها على مواجهة الحياة، ولكن يسلم تجاربه لمن يعده لينتفع بها هو كذلك وأن يبدو سلوك الطفل أنانياً، أو غشيماً، أو همجياً، فلا عيب على هذه الغرائز فهي في مجموعها على أتم استعداد وأوفاه لتأدية غرضها ولكنها شيء "خام" أو بتعبير آخر كالمدفع المستعد للانطلاق. فمن يكن كيمائياً ماهراً يصنع من "الخام" شيئاً ذا قيمة ثمينة، وكذلك القائد الماهر، يوجد المدفع المستعد إما لهدم الأحياء الآمنة إذا شاء أن ينتصر به على الأعداء ويجلب لنفسه القوية المجد إذا شاء.

فهذه الغرائز قوى حقيقية يجب أن لا تكبل ولا تغل ولا تحارب بل

تترك لها حريتها مع حسن التوجيه وإتقان القيادة. وهي في مجموعها ثلاثة أقسام كبيرة غريزة الذات، وغريزة الجنس، وغريزة المجتمع، والسلوك الإنساني متوقف على المحرك للغريزة، فالجوع يدعو لطلب الطعام والبحث عنه، إلا إذا اعترض الغريزة عامل الخوف فإن السلوك يتغير، وهذا ينطبق بشكل واضح على سيكولوجية الطفل، فإن الخوف يكبل غرائزه ويمنع انطلاقها ويحد من حريتها، ويجعل السلوك المنتظر من وراء تلك الغرائز مغايراً لما نتوقع. وهذا الاختلاف يجيء على صورة من اثنتين إما في اضطراب نفسي، أو في سوء خلق، فيتضح من ذلك أن سوء الخلق والاضطراب العصبي "كالأفكار الثابتة والنيوروز" مصدرهما واحد، وهو تكبيل الغرائز والحد من حريتها بالقسوة والزجر والخوف. مثال ذلك أنه إذا منعت إحدى غرائز الطفل من مجالها الحيوي اندست رغباتها في الباطن، بغير أن تموت هذه الرغبات، وهذا مصدر القلقلة العصبية وهي في أبسط مظهر نوع من الضغط كالوتر المشدود، وتدعى "القلق العصبي" **anxiety** فإذا حاول الطفل إشباع رغباته المنطوية يلجأ إلى طرق غير مستحبة كالنفاق والكذب. فلنا إذن أن نعد سوء الخلق صورة من صور الاضطراب العصبي. ويتضح من ذلك أن التربية التي تؤدي إلى الصحة العقلية، تؤدي بنفسها إلى سلامة الخلق، وهذه هي مظاهر الاضطراب النفسي في الأطفال.

١- مخاوف مجهولة السبب **Phobia**

٢- أعمال وعادات اضطرارية ثابتة لا يمكن مقاومتها **Obsessions**

٣- أعراض جسمية لا يمكن تعليلها ولا ردها إلى مرض عضوي منها التبول في الفراش في الأطفال، ومنها أحوال من اضطرابات المعدة، والتشنجات واحتباس النطق.

٤- النقص الخلقي. فمنها ما هو في الأصل فضيلة فانقلب بالإغراق رذيلة، كالتواضع إذ يصير مذلة، والرحمة إذ تنقلب بالإغراق ضعفاً وجبناً، ومن النقص ما هو ظاهر كل الظهور، كالنفاق والكذب والغرور، مثل الشذوذ الجنسي والميل إلى الإجرام، لا يخرجان عن كونهما صورتين من صور النقص الخلقي. ولا يجب اعتبارهما شيئاً خاصاً يختلف عن النفاق والكذب والادعاء.

كل تلك الأعراض تعبير عن ثورة التصادم بين الانفعالات النفسية وهذه الثورة وذلك التصادم طبيعيان في كل فرد. ويظهر أن هذا الاحتكاك لازم لإحداث شرارة، يعقبها حرارة وقوة، ولكنه إذا زاد عن حده، وكان ذلك في نفس بطبيعتها قليلة التحمل، وخاصة إذا انحبست الحيوية الناشئة عن تماس الانفعالات، فإن القلقلة النفسية تحدث في صورة من الصور التي ذكرناها. وليتذكر القارئ أن ذلك الصراع **Conflict** لا يحدث إلا في السنوات الخمس الأولى في حياة الطفل فإن لم يحدث في ذلك السن فإنه لا يحدث فيما بعد. ومن ذلك نعلم أهمية السنوات الأولى في الحصول على نفسية سليمة غير معقدة.

وكل صراع "محدث" ألماً ، فيخلص منه العقل بأن يطويه وينساه فيصير لا شعورياً. وهذا ما يسمى الكبت، ولا يجب أن نظن أن كل نهي

من جانب الوالد أو المربي محدث هذا الكبت. فإنه لا يحدث إلا إذا استثير شعور الطفل "كالغضب مثلاً" استثارة بليغة. ويظهر أن هناك درجة خاصة إذا وصلت إليها الانفعالات المهتاجة حدث الكبت، ويظهر أن الحالات تختلف حسب الاستعداد الوراثي وليكن معلوماً أن هذا النسيان اللاشعوري ليس بنسيان حقيقي فإنه لابد وأجد مخرجاً على طريقة ما، فقد يخرج على صورة مما فصلناه سابقاً وقد يخرج على صورة مضادة تماماً للانفعال الذي كبت، وقد يخرج مزيجاً من هذا وذاك يصعب فهمه وتعليله إلا بالتحليل النفسي.

ولا مطمح للغريزة في الطفل إلا تحقيق رغبتها والوصول إلى السرور، فهو مطلب الطفل الأول والأخير. والسرور يحدث له بمجرد تحقيق الرغبة. وكثير من هذه الرغبات طائش أو غير مجد أو ضار بالغير. فإن الغرائز مهما كانت "عادات موروثة" كما ذكرنا فإنها عادات متدرجة في سلم التطور من حسن لأحسن ولكنها لم تبلغ الكمال بعد بل لا يزال يعلق بها كثير من النقائص ويكسوها الصدأ والتراب، فنحن لا نهزأ بهذه الغرائز ولا نحتقرها، لأنها خلاصة أجيال طويلة بل نحترمها كما نحترم المعدن النفيس الذي يحتاج إلى الصقل كيما يتجلى بريقه وتتضح نفاسته. إذا فهمنا سيكولوجية الطفل على هذه الصورة أمكننا أن نفهم واجبنا إزاء هذا الطفل، وأمكننا بقليل من الفطنة والكياسة أن نخلق منه رجلاً سليم الخلق سليم النفس، يواجه الحياة بشجاعة وقد زودناه بالسلاح اللازم لمواجهتها والدخول في غمارها. لا بل أن نفس الطفل منجم يجب البحث في زواياه عن الذهب. فلقد يبدو للعين شيئاً كله أنانية، لا يلمح المربي فيه أثر

للغيرية، ولكن هذا محض خطأ، فإننا نلاحظ أنه في وقت اللعب كثيراً ما ينسى أنانيته فيرضى بمكان ثوي صغير، ونلاحظ أنه يحمي الضعيف، ويتولى الصغير بالحماية. هذه الخصائص التي تؤهله للدخول في المجتمع، أو ما يسمى بالانكليزية **Self- Subordination** موجودة فيه وإن تكن مستترة مغطاة، ويجب أن تشجع، وهي الباب الذي منه ينفذ المربي إلى نفس الطفل ليقوم خلقه. وهناك شيء آخر قد تغطي عليه حركة الطفل وصياحه وهمجيته. وهو حاجته للحب. وأنه في حاجة إلى استدامة ذلك الحب ويمكننا استغلال تلك الحاجة فيه لتحويل السرور الكاذب الذي يناله من مجرد تحقيق الرغبات إلى سرور حقيقي يناله من المحبة التي ينشدها. وهناك شيء آخر يستتبع الحب. وهو أنه يقلد الذين يحبهم ويريد أن يكون مثلهم. وبتعبير آخر يجب أن يفطم الطفل من "السرور الغشيم" الذي هو في طبيعته بتحويله لسرور حقيقي ناشئ من تهذيب غريزته الاجتماعية، وسرور آخر ناشئ من إعطائه حب والذي يشعره بالثقة ويجعله في جو من الحرية يؤمن فيه بقيمة نفسه، أو بأن الحب موجه إلى فضائل تلك النفس أكثر من توجيهه إلى ذاتها. يؤمن بهذا كلما امتدحناه على الفعل الحسن، ولم نتوان في مؤاخذته على الإساءة. على شرط أن تقترن المؤاخذة بالإرشاد. وأن لا تتعرض لحريته وعلى شرط أن لا تهدم طبيعته الفنية. مثال ذلك: إذا رأينا طفلاً يرسم على الحائط، لا يجب أن نعاقبه لذلك. بل علينا أن نقول له الرسم نفسه شيء جميل، ولكن الرسم على الحائط خطأ، ثم نعطيه ورقة ليرسم فيها، فإذا رسم شيئاً قلنا له "برافو" ما أجمل الرسم! ويمكن معالجة الخطأ بما يدعى "التسامي" التحول

إلى شيء نافع بدل الشيء الذي لا جدوى منه، مثال ذلك إذا رأينا الطفل يحاول إحراق شيء بعود ثقاب، جعلناه يوقد شيئاً تحت ملاحظتنا بعود ثقاب، لنريه كيف يمكن بعود الثقاب أن يكون أداة وقوة نافعة تغير أو تدفئ بدل أن تحرق وتضير. ولكن ألا نخيفه من النار؟ نعم التخويف هنا نافع بل لازم، والخوف هو في تلك الحال السبيل الوحيد لردعه عن ارتكاب ما يمكن أن يكون منه خطر على حياته.

اللعب في حياة الطفل

لا يسمى اللعب لعباً حتى يكون ساراً، ولا يكون ساراً حتى يكون مخرجاً لانفعالات أو محققاً لأغراض غريزة ما. ولقد ذكرنا سابقاً أن للغرائز التي تسيطر على الطفل هي "غريزة الذات" و"الجنس" "والمجتمع" ، فغريزة الذات تجد مخرجاً في اللعب الذي يشعر الطفل فيه بشيء من السيادة، وغريزة الجنس تجد مخرجاً في العمل الذي يستدعي الخلق والابتكار. والغريزة الاجتماعية تجد تحقيقاً في اللعب الذي يكون فيه الطفل مع آخرين ويشعر فيه أنه خاضع لحكم الجماعة.

ويمكن الاستدلال من اختيار الطفل لنوع اللعب على نزعة الطفل السيطرة عليه فليترك له الاختيار حتى يتيسر السرور المنشود. ولما كان الغرض من اللعب مهما كان نوعه الشعور بالمقدرة على إحداث شيء ما يشعر الطفل بقيمته الذاتية، فمن الواجب أن لا يتدخل الكبار في لعب الأطفال، إلا بما يقتضيه الأشراف، وعليهم الثناء والتشجيع في الوقت المناسب. ولا يدلنا من كلمة في اللعب الذي له صبغة اجتماعية فعلى

الأطفال أن يتناوبوا الزعامة فيما بينهم، حتى يشعر الطفل وهو يتنازل عنها لغيره ،إنه خاضع لحكم الجماعة حينا، وقائد للجماعة حينا، ويجب أن يصير ذلك طبيعياً فيه فيعتاده ولا يجادل فيه. وهذا إعداد جميل للحياة، فإنه ينبه الغريزة الاجتماعية، ويبين قيمة العمل الاجتماعي وقيمة الحكم في غير تعسف والطاعة في غير تذمر، ومن فوائد اللعب في الطفل أنه يعلم المهارة، وينمي الذكاء، وأخيراً وهو في نظري من أهم فوائده، من حيث أن اللعب ضرب من العمل. فالناس يملون العمل وهم كبار لأنه ليس مقترناً في حياتهم باللعب. فإذا اقترنت فكرة العمل بأنه لعب مثمر سار "لم يقترن العمل بالسآمة أبداً".

ولقد اتضح أن الكبار الذين يكرهون عملهم ويسأمونه إنما يفعلون ذلك للأسباب الآتية:

"١" لم يجد الرجل وهو طفل تنفساً في اللعب فكبحت غرائزه ولم تجد مخرجاً.

"٢" لم يعط الرجل وهو طفل "المادة" التي يعبر بها عن سبيل اللعب عن نزعاته الطبيعية، لتنمو وتزدهر.

"٣" لم يعط الرجل وهو طفل فرصة اختيار نوع اللعب الذي يوافقه ويسره ويناسب طبيعته.

الجنس في حياة الطفل

الطفل يولد ومعه غريزة الجنس، ولكن مظاهرها ومعانيها تختلف عنهما في البلوغ. وقد اختلفت مدارس السيكولوجيا اختلافاً جوهرياً في

تقدير مسألة الجنس عند الطفل. فإن فرويد يعطيها أهمية بالغة ..أما تلامذته فلا ينكرون وجود هذه الغريزة ولكنهم لا يعلقون عليها الأهمية التي يعلقها فرويد. ومهما يكن من الأمر فإن هناك من مظاهر وجود هذه الغريزة ما لا جدال فيه. فإن من الواضح جداً أن جسد الطفل وملذاته الحسية هما من المبدأ موضوع اهتمام الطفل.

فإن الطفل لا يفتأ يعرض جسده ويتحسسه بيديه. وبينما يتحسس هذه المناطق في شبه استكشاف يتبين له أن منها ما يلذ ومنها ما يؤلم. فيتضح له مثلاً أن هناك لذة في تحسس أعضاء التناسل والشرج، ولذة خاصة تتعلق بالفم، وأن هناك ألماً فيما يختص بالعين فيزاول ما يحدث اللذة ويتجنب ما يحدث الألم، ويجب أن يفهم أن اللذة التي حول أعضاء التناسل والشرج هي لذة جنسية. ولكنها عند الطفل لا تتعدى اللذة الحسية. وما دامت هي اللذة طبيعية، أي أن هذه المناطق لا تهيج باللمس ولا تستثار بسوء الاستعمال، فلا خوف من وجودها. فعلى المربي أن لا يضرب الطفل حين يراه يتعرى، أو حين يلمس أعضاء التناسل. فكل ما عليه أن يضمن وجود هذه المناطق نظيفة وخالية من المهيجات "كديدان الشرج" وعليه أن يضمن أنه ليست هناك خادمة أو مربية تهيج هذه المناطق بمنشفة جافة جداً. وعليه أن ينبه الطفل إلى أن تلك المناطق "خاصة" به وحده وأنه ليس من اللائق أن يريها للناس. وعليه أن لا يجعل الطفل يفهم أن تلك المناطق تختلف عن أجزاء الجسم الأخرى إلا في أنها "خاصة" أما من جهة الفم والشفاه، فلا يجب بتاتا أن يقبل الطفل في الشفاه، ويتعلم الطفل أن يتجنب هو تقبيل أحد في شفته، وحبذا لو تعلم

أن يتجنب التقبيل على الأطفال من ناحيته ومن ناحية الغير.

ومن مظاهر الغريزة الجنسية، أسئلة الطفل الجنسية التي يوجهها لوالديه. ومن قواعد التربية السيكولوجية الحديثة أن تلك الأسئلة يجب الإجابة عليها. بل أكثر من ذلك يجب أن تكون الإجابة عليها بصبر واستفاضة حتى نضمن كثرة تكرارها. ولكن كيف نجيب على هذه الأسئلة الحرجة. وهي تتضمن أسئلة عن الميلاد أو أسئلة عن المسألة الجنسية إذا رآها الطفل تجري بين حيوانات المنزل كالكلاب والدجاج. يجب أن يجاب على تلك الأسئلة كأنها أشياء عادية يرد عليها كما يرد على الأسئلة الأخرى. بذلك يتنحى عن العلاقة الجنسية عنصر "الخفاء" الذي يحيط بها دائماً والذي يلصقها فيما بعد بالجرائم، والذنوب. ويجعل الشبان يتكلمون عنها أو يستعملون عنها همساً. لا بل زاد على ذلك علماء سيكولوجية الأطفال فقالوا يجب على الأطفال الذكور والإناث أن يستحموا في حمام واحد حتى يعتادوا رؤية هذه الأجسام، فلا يكتسي في المستقبل نوعاً من الغموض أو الغرابة الداعية إلى التطلع والدهشة. ولكن ماذا نقول لهم إذا سألونا عن المسألة الجنسية وهي تجري بين حيوانين أبصروهما؟ بماذا نفسر ما يبدو لهما من العنف في هذا العمل؟ إن علينا أن نقول أن الحيوانين يحبان بعضهما حباً ينشغلان بعنف في إدخال "بذرة" ينبت منها مخلوق جديد. وأن هذه البذرة تنموا في بطن القطة أو الفرخة مثلاً، وإذا سأل عن كيفية ميلاد أخته أو أخيه قلنا أنه ينبت من "بذرة" توضع بهذه الطريقة.

ولكن على الأطفال ألا يناموا مطلقاً في أحضان الوالدين وأن لا يروا العملية الجنسية. فقد ثبت أن الأطفال الفقراء الذين ينامون في أحضان

والديهم بسبب الفقر، عندما يرون العملية الجنسية يترجمونها في خيالهم الصغر كأنها صراع يعقبه انتصار وسرور، أو تعذيب يلزم لإحداث الفرح الذي يليه. فيشب وفي نفسه فكرة خاصة عن التعذيب ووجوبه، فيأخذ الصبي الجانب الموجب منه وهو السادية وتأخذ الأنثى الجانب السالب منه وهو قبول التعذيب وهو المازوكية.

ولقد زاد على ذلك بعض الباحثين في هذا الباب فقالوا إن العادة السرية التي ليست غير "تعذيب ذاتي" هي نوع من "السادية" وقد يكون من أسباب مبيت الأطفال في أحضان والديهم.

وفوق ذلك فإن الطفل قد يغار من أبيه، وقد يكرهه إذا رأى بعينه ما بين الأب والوالدة، فإني أعرف طفلاً مدللاً كانت الزوجة تستبقيه في سرير الزوجية، فكان يقول لأمه مشيراً إلى أبيه "اخرجي هذا الرجل من هنا".

لماذا يفسد الأطفال ؟

إن علم النفس قد خطا خطوات واسعة في تفسير هذا الموضوع. والواقع أن الآباء أنفسهم لا يتعمدون إفساد أطفالهم. بل هم على الأصح لا يعلمون لماذا يفسد هؤلاء الأطفال. ولو أنهم علموا لتجنبوا ما يؤدي إلى هذا. إنهم ليواجهون أمراً عجيباً عليهم حين تتضح لهم نتيجة سوء تربيتهم لأطفالهم. إذ تتضح فجأة كنتيجة لأخطاء متسلسلة تصل في النهاية إلى درجة حاسمة. ومادامت الوقاية خيراً من العلاج فإننا نعتقد أن المربين الذين يعلمون شيئاً عن كيفية تطرق الفساد إلى نفوس الأطفال. سيعملون بلا شك على تجنب المزالق التي وقع فيها الكثيرون..

ومن العجيب أن أسباب الفساد كثيراً ما تكون في نفوس المربين أنفسهم. فهم يعكسونها على أطفالهم بغير أن يعلموا..

الفساد في الأطفال نوعان:

"١" مستتر. يبدو للعين كأنه فضيلة. ويدعى بالإنجليزية **Unsublimated expression type** أي النوع التعبيري الذي لم يتسامى به.

"٢" ظاهر: وهو الطراز "المكبوت" **Infantile repressed type** أما النوع الأول فينشأ من نمو غريزتي الذات والجنس نمواً مباشراً على حساب غريزة المجتمع. وبعبارة أخرى يكون الطفل همجياً صغيراً.

على أن هذا الطراز من الأطفال قد يكبر ويصير شخصاً عملياً ناجحاً، فإنه قد ينمو طبيعياً بلا كبت ويكون قوي الخلق غير متعرض لقلقلة عصبية.

والأمم التجارية في حاجة لمثل هذا النوع، ولكنه يخلق لذلك أنواعاً من المجرمين والعاطلين والكسالى. إذا كانت غريزة المجتمع قد أهمل الالتفات إليها إهمالاً كبيراً.

"٢" الطفل المكبوت: هذا الطراز من الطفل يكون معرضاً في التربية لأحوال من الضغط تتناوب مع أحوال من التراخي والتساهل والغالب أن الوالدين ذاتهما تعرضا في طفولتيهما لهذا النوع من التربية وقد يكونا ذاقا نوعاً من الحرمان لم ينسياه في كبرهما فأحبا أن يجنبا أطفالهما ما ذاقاه منه. فيبيحان لهما شيئاً من الحرية، وبخاصة فيما يتعلق بالماديات، وقد يتطرفان فوق التعويض**Over Compensation** فيما يمنحان من الحرية والتساهل

،فإذا لم يكن ما أصاب الوالدين بالغاً مؤدياً إلى الكبت والنيوروز، فقد تؤدي تلك الحرية المادية إلى النوع الأول الذي ذكرناه، ولكن النوع الذي نحن بصدده –أي الفساد الحقيقي– يجيء على يدي والدين عندهما مظاهر الكتب العصبي فمن تلك المظاهر اتصافهما بالسخط على العالم، والتفكير في خطط جديدة لإصلاحه. ولكنهما لا يفعلان أكثر من أن يتكلما فإن مواجهة الحقائق الصارمة تكون قد بردت نار الحماسة فيهما ولم تترك غير دخان الكلام. وهما يؤمنان بالتقاليد في بواطنهما ويحاربانها في الظاهر. وهما كذلك متطلبان العطف المحبة وينشدانها. ومن مظاهر القلقلة العصبية الاتصاف بالنظافة المتطرفة والنظام المطلق. على أن نشدان المحبة عندهما، يكون بطريق التظاهر بالألم، وادعاء المرض لاستثارة الشفقة. وإذا أحبا لم يبلغ الحب عندهما عمقاً حقيقياً وعاطفة الجنس عندهما فاترة. وظاهرهما الغيرة. وباطنهما الأنانية، وهما يطبقان كل هذا على الطفل فلننظر ماذا يصنعان. ومادمنا نعرف أن الأم هي كل شيء، فلنتكلم عن الأم.

تلك الأم تسيطر على الطفل وتتحكم فيه بدموعها أو بتهديده بأنها "لن تحبه" أو أنها ستمرض أو تموت إذا لم يستمع إلى نصائحها. وفي الواقع تريد أن تطبعه بطابعها، أو تمحو شخصيته لتجعله على غرارها، فكل ما يعمله خطأ. ولا يجوز وهكذا.. فيصل الكبت عنده إلى آخر مراحله.

على أنها بينما تفعل ذلك، أي بينما تسيطر تصير خادمة للطفل وعبدة له تقضي أقل حوائجه وتسهر على راحته. فيشعر شعوراً كاذباً بأهميته وقيمته. ويزيد هذا الشعور الكاذب أنها تدافع عنه أمام الغرباء ولا

تقبل فيه نقداً ولا تجريحاً. وهو كلما أطاعها واتبع ما تشير به. تمتدحه وتقول أنه طفل عظيم. فيصير في رأي هادفيلد لا يعرف "إن كان دودة أم إلهاً".

وإليك صورة من هذا الطفل في سن الخامسة. طفل نحيف البنية يشكو من علة في الصدر أو المعدة. وقد أخذت المخاوف تسولي عليه وهو آية في النظافة مجتهد في تجنب ما يفسد أناقته. عليه سيماء الجد والهدوء. ولكنه يستثار لأقل نقد أو سخرية. يلجأ إلى دموعه بسرعة. وإذا لعب تطلب مركزاً رئيسياً من رفاقه. فإذا لم يستطعه عاد إلى المنزل شاكياً لأمه التي تفهمه أنه "أعلى وأحسن من هؤلاء" والعبرة من تلك الصورة إن الطفل يتخذ مظهرين. مظهراً كاذباً، يخالف الصورة الباطنة المستقرة في نفسه. كأن تربيته التي تراوحت بين طريقتين طبعت ظاهرة بشيء. وباطنه بشيء آخر. فبينما ظاهره الهدوء والنظافة، يكون باطنه القسوة والسيطرة، والقذارة والخسة. ومن العجيب أن الأم العصبية التي فصلنا صورتها سابقاً، وهي التي تبدو في حاجة إلى العطف فتطلبه، وتبادله، هي الصنف الذي يجتذب الرجال. فهي التي ينشدها الرجل ويتزوجها. لما فيها من العاطفة التي تتطلب المشاركة، والحب الذي ينشد صدى له في القلوب. أما الرجل المتصف بالعصبي– إلى العزوبة لأنه يميل إلى العزلة.

فإذا تزوجت امرأة ممن ذكرنا برجل متزن سليم النفسية، فإن ميلاد طفل لهما سيزيد الفروق السيكولوجية بينهما مدى واتساعاً. وهذا التباين في الطباع يحدث في جو العائلة تأثيراً بليغاً جداً ويكون عاملاً جديداً في إفساد الطفل.

وليكن معلوماً أنه ما من أم أو أب يتعمد إفساد طفله، العلة أنه لا يعلم ما هو صانع. والجهل هو أساس العلة. وهذه هي خلاصة النصح الواجبة الاتباع:

١- يجب أن تجد كل غرائز الطفل مخارجها. ويستحسن أن يتسامى المربي بهذه الغرائز. أي يعطيها المخارج والمسالك التي تعلو بها وتتهذب وترتفع.

٢- يجب أن يكون الحب المتبادل بين الطفل والوالدين طبيعياً غير متطرف ولا عنيف.

٣- يجب أن يرى الطفل نفسه على حقيقتها، أي لا يجب أن تنسج حوله هالة كاذبة من المجد.

٤- يجب ألا يكون الوالد "صديقه الوحيد" بل لابد للطفل من رفاق يلعب معهم ويألفهم ويألفونه على قدم المساواة.

٥- إذا كان الوالد في ظمأ إلى المحبة والعطف، فليس عليه أن يتطلبهما من الطفل.

٦- يجب أن يفهم الولد سيكولوجية الوالد ، وأن يدرك أن الوالد في عقله الباطن يقول "إني أنجبت هذا الطفل" وأنا سأتولى الإنفاق عليه وسأعاني ضروباً من الحرمان في سبيل تربيته وفي الوقت نفسه أني أحبه، فعليه مقابل هذا أن يطيعني طاعة عمياء فالغرور يملي على العقل الباطن، بينما العقل الواعي يملي العكس، يملي على أموراً قد تكون تطرفا، وهي السهر على الأولاد لدرجة المذلة، والإغراق في

حرمان الوالد ليسعد الأولاد، ولكن فكرة السيطرة المقدسة في العقل الباطن لا تموت ولا تتلاشى. بل تظهر في أحوال الغضب عندما يعصي الطفل ما يعطى إليه من النصائح أو الأوامر.

تلك السيطرة الباطنية الغشيمة هي التي تدفع الوالد لاستعمال العنف والتفوه بألفاظ الأمر والزجر.فما على الوالد حين يثور غضبه إلا أن يتذكر تلك النصيحة الأخيرة، ألا وهي عدم السماح للسيطرة والغرور المستقرين في العقل الباطن بالظهور والتحكم، وكذلك عدم السماح للعقل الواعي بالتطرف في مبدئه من حيث جعل خدمة الوالد للطفل نوعاً من العبودية، أو الحب نوعاً من العشق.

قال برناردشو: حذار أن تسيء إلى الطفل وأنت غاضب إن إهانة واحدة، وأنت في تلك الحال قد تشوه نفسيته مدى الحياة، بل أدبه وأنت هادئ رزين "بارد" الطباع.

سيكولوجية المراهقة

تعريف: المراهقة هي المرحلة من العمر بين البلوغ والنضج، وتقدر على المتوسط بسبع سنوات والبلوغ هو الوقت الذي يكون فيه الشخص قادراً على الإتيان بمخلوق جديد. ويختلف ميعاده بحسب الجنس والمناخ والذكاء وعوامل أخرى. فمن جهة المناخ يبكر البلوغ في المناطق الحارة، ويبطئ في المناطق الباردة فقد ذكر أنستروم في إحصائياته عن البلوغ في فنلندا أن حول ٦٠٠ حالة من ٣٥٠٠ حدث البلوغ فيها في السادسة عشرة، ومن تلك الحالات ١٩٥ حدث البلوغ فيها في الثامنة عشرة.

بينما قد يحدث البلوغ في المناطق الاستوائية في سن التاسعة. ولا يندر هذا في مصر. وإنما المألوف أنه بين الثانية عشر والرابعة عشر.

وبينما يمكننا التحقق من البلوغ عند البنات بواسطة الحيض فإنه لا يمكن بالضبط التحقق من بلوغ الصبي بغير فحص المني. على أننا نأخذ بالخصائص الجنسية الثانوية كنمو الشعر وتغير الصوت. فيمكننا أن نقول على العموم أن الذكور يسبقون الإناث في البلوغ بما يقرب من السنة.

ولابد من شرح علاقة البلوغ بالذكاء. فالأذكياء على العموم يبكرون في البلوغ وقد وجد ترمان في كاليفورنيا أن ٤٨ في المائة من البنات الأذكياء أتاهن الحيض قبل الثالثة عشرة ويبطئ البلهاء وضعاف العقول في البلوغ. والسبب في هذه الظاهرة البيولوجية لم يتحقق بعد.

تغير الصوت

تغير الصوت ميزة ظاهرة في البلوغ عند الذكور أكثر من الإناث فقد اتضح أن حبال الصوت في الذكور يتضاعف طولها. فيخشن الصوت ويتقطع ويصعب التحكم فيه، وقد يصير أجشاً غريباً حتى يظن أن هناك مرضاً بالحنجرة. أما في البنت فقد لا يكون التغيير ملحوظاً، وإن صار خشناً أحياناً، أو خارجاً عن طوع الإرادة أحياناً أخرى..

التغير في الحجم: ينمو كلا الجنسين في الحجم عند البلوغ. ويبلغ هذا النمو أعلى درجاته، ويسبق البنات الذكور في الطول والحجم.

ويهمنا في جهة السيكولوجية طول الأقدام والأيدي والأنف بشكل خاص، فقد يحدث هذا الطول فجأة ويكون ظاهراً جداً بحيث يكون

موضوع ملاحظات جدية، وبحيث يخجل البالغ أو البالغة من الظهور به، وقد يعتقدان أن هذا التطور في الحجم سيستمر إلى ما لا نهاية ولكنه في الواقع لا يستمر فيجب أن يخبر بهذا، وقد يكبر الأنف بشكل خاص حتى أن البالغ ليقف عند المرآة مراراً متأملاً فيها خائفاً من مصيرها! وخاصة إذا صحب نموها تغيرات جلدية في الوجه والإفراز الدهني مما يجعل شكل الوجه مضافاً للأنف مخيفاً!

وهنا نصل إلى نقطة هامة لابد من ايضاحها، فقد جرى في الأوهام أن البلوغ ممكن أن يحدث معجزات في التكوين. فليكن واضحاً أن هذا خطأ، فإن البالغ الذي عنده استعداد للطول يصير طويلاً في هذه المرحلة من العمر، وإذا كان عنده استعداد للقصر فلا تنتظر أبداً معجزة الطول، والطول والقصر يتوقفان على الوراثة أكثر من أي شيء آخر.

تغيرات الشكل

لا داعي للإفاضة فيما هو معلوم من أن البلوغ يعطي لكل جنس شكله الخاص، فالبنت تنمو ثداؤها ويعلو عنقها ويستدير، بينما الصبي تكبر عضلاته وتنمو وتشتد، بينما يكبر فكه ليعطيه مظهر الذكورة وهكذا..

ويصحب هذا التغيرات نمو الأعضاء الداخلية على الإطلاق. ولا يفوتنا أن نذكر غدد العرق، فلا يضطرب الآباء إذا رأوا أيدي بالغيهم وأرجلهم تندى بالعرق الكثير، أما المخ والجمجمة فهما لا ينموان بعد البلوغ، بل يكونان قد بلغا أكبر حجم لهما عند البلوغ..

المناعة والأمراض في البلوغ

تكون المناعة عند البلوغ في ذروتها بحيث تقل الوفيات وقد أثبتت الإحصائيات ذلك. على أن أمراضاً خاصة تحدث في تلك الحقبة من العمر وهي الأنيميا والزعاف الأنفي وخفقان القلب والاضطرابات العصبية. على أنه ليس من الثابت إلى الآن إن كانت هذه أمراضاً خاصة بالبلوغ أو هي امتداداً لاستعدادات خاصة في الطفولة على أن الحوادث والإصابات كثيرة الحدوث في البلوغ وذلك للحرية التي ينالها البالغ بحكم انطلاقه من قيود الطفولة.

مخاوف البلوغ

هناك نوعان من المخاوف. نوع يتعلق بالنمو ونوع يتعلق بالطوارئ الجنسية كالحيض وإفراز المني. أما عن النوع الأول فهو قسمان قسم يتعلق بإحساس البالغ الذي أسرع في النمو أن هذا النمو قد تطرد بلا نهاية وقسم يتعلق بالبالغ الذي ينمو ببطء أنه قد لا ينمو النمو المنتظر وهذه المخاوف تسهل إزالتها، وإزالة الانفعال الناشئ من تأثيرها بشيء من الإفهام والإقناع. أما المخاوف الحادثة من الطوارئ الجنسية فيمكن إزالتها بإعداد البالغ لما سيحدث له إعداداً طبيعياً ليس فيه شيء من التهويل ولا المبالغة أي أنه لا يجب أن نفهم البنت أن الحيض شيء غريب ويجب أن يفهم الطفل أن إفراز المني عند البلوغ شيء عادي يحدث لكل من شب عن طوق الطفولة. وهذه المخاوف قد ورثناها عن الإنسان الأول الذي كان دائم الخوف من "المجهول".

أما من جهة الوالدين فلا يجب أن يعتقدا أن البلوغ مرحلة محددة قائمة بذاتها- بل يجب أن يتأكدا تماماً أنها امتداد طبيعي للطفولة وأن الطفولة يتقلص ظلها رويداً فيحل مكانها البلوغ رويداً. ويجب كذلك أن يفهم أن البلوغ لا يغير الشخصية ولا العقلية الشخصية الضعيفة ضعيفة من المبدأ، والغباء واضح من أوله: ويظهر أن الاعتقاد الخاطئ عند كثيرين بأنه في البلوغ قد تحدث معجزة ما، ناشئ من الطريقة التي كان الإنسان الأول يتبعها في إعداد البالغ لدور الرجولة والدخول في الحياة الاجتماعية للقبيلة فقد اختلطت على الأجيال مسألة الإعداد الاجتماعي بالتعبير البيولوجي للصفة العضوية.

لقد يتضح أن طفلاً غبياً تحسنت صفة ذكائه عندما دخل المدرسة كلا فإنه بالمراجعة قد يتضح أنه إنما وضع في فرقة منه في الغباء وكذلك عندما يخرج من المدرسة وهو في آخر الصفوف قد ينجح في حرفته التي احترفها. فيتهم بالذكاء. والواقع أن الحرفة توافق مزاجه ولذلك وفق فيها.

حفلات الانسان الأول احتفاء بالبلوغ

بين قبائل المتوحشين عادات تدل أبلغ دلالة على أهمية البلوغ في نظر الإنسان الأول: من تلك العادات احتفاء القبيلة ببلوغ الصبي احتفاءاً خطيراً مقدساً. ويبدو أن هذا أول خطوات التعليم المنظم للإنسان على الإطلاق.

وتلك المرحلة الوحيدة كانت مسحوبة بالتعذيب والإهانة والدرس القاسي، ومصحوبة بما قد يبدو لنا الآن كمظاهر خارجة عن الأدب.

فمن المعلوم أن الصبي لغاية البلوغ متعلق بالأم وبرفاقه، ففي تلك المرحلة ينتقل الصبي تماماً إلى الوالد والقبيلة. والفرق بيننا وبين ذلك العهد، أننا لا نعد البلوغ مرحلة الرجولة، بينما القبيلة كانت تعد الصبي البالغ رجلاً، وتعده للحرب والكفاح والزواج، ولكل ما يتعلق بأحوال القبيلة. وكانت القبيلة تحسب هذا الإعداد شيئاً بالغ الأهمية ولذلك كانت تجعله أشد ما يكون روعة وإدهاشاً. ولكي تكون الدهشة أتم والدروس أقسى، كان الإرشاد يوكل لغير الأب. حتى لا يكون هناك حنان ولا محاباة. وكان جزاء المخالفة العقاب بالموت أحياناً. والعادات تختلف في التفاصيل بين قبيلة وأخرى. ولكنها تتفق في التعذيب والتعود على احتمال المكاره. فقد يحرق الصبي بالنار. وأحياناً يضرب على فكه حتى يقع سن من أسنانه. والويل له إذا شكا وتأوه. ومن العادات الشائعة أن يحبس الصبي في مكان منفرد بضعة أيام، يتولاه فيها بالإرشاد رجل أو اثنان، يعلمانه أسرار الزواج، وقوانين القبيلة وواجبات الرجل في الحرب والسلم. ومن تلك العادات أن يبدي الصبي بطريقة من الطرق أنه خرج تماماً عن دائرة الأم والصغار جميعاً.

والمهم في كل هذا أن يفهم البالغ أنه قد أنبت ما بينه وبين حياة الطفولة واللعب. ومن العادات الشائعة أيضاً أن يصبغ وجه البالغ حتى تعطيه هذه الصبغة مظهراً مخيفاً يجعله يعتقد أنه قد انتقل إلى حياة الرجولة حقاً. والمفهوم من هذا أنه لا ينتقل إلى "القبيلة" إلا البالغ الذي علم الأسرار والقوانين، وأثبت أنه جدير بأن يكون رجلاً خليقاً بالقبيلة خليقاً بأن يخرج إلى الحرب وأن يحسن الدفاع عن قومه وعشيرته. وبمجرد أن يعلم

البالغ الأسرار وينتسب إلى الأفراد المعدودين في قومه عليه أن يتزوج. فيتزوج ما شاء له ويتفنن في ارتداء ما يجذب النساء إليه.

أما تلقين الأسرار للنساء فيختلف قليلاً. ولكن الشائع أن تحبس الفتاة في منزل منعزل ستة أشهر لا تبرحه، وفي أثناء ذلك يلقن أسرار الزواج وتعلم الحياكة والغزل والطبخ وغير ذلك من واجبات الزوجية. وكثيراً ما تكلف بالصيام. وعندما يتم تلقينها يوضع عليها ملاءة بيضاء، ثم تخرج منها في الصباح، ويصاحبها أهلها إلى الخارج، وهذا ما يماثل عندنا الحفلات التعارفية عندما تكبر البنت وتصحب أمها هنا وهناك وتسمى بالإنكليزية **Coming out party** ولا يزال هذا "الخروج" شائعاً في بلاد أوروبية وأمريكية كثيرة.

وعندما تنتهي تلك الحفلات الرسمية المقدسة، تكون البنت في عرف الجميع "امرأة" ويتقدم الخطاب لخطبتها.

ذكرنا هذه المرحلة في حياة البالغ والبالغة في القبيلة لنبين أهميتها في نظر الإنسان الأول. ولنستخلص منها كذلك بعض ملاحظات تفيدنا في بحثنا التالي. فإنما نحن على أثر الإنسان الأول نسير بدون أن نعلم. وإن كنا نبدل ونغير حتى نحسب أننا ابتدعنا شيئاً جديداً. فالنقطة الأولى تتضح من أهمية "الانفصال" من حضن العائلة. والثاني أن البالغ صار في عداد الذين عليهم أن يكسبوا عيشهم بأنفسهم وانه أخذ في بناء مستقبله وباحتراف عمله. والثالث أن صار ناضجاً جنسياً وإن عليه أن يعمل على انتشار النسل. والرابع أنه لقن الأسرار التي تجعل له رأياً في الوجود وتبصره

بأحوال العالم والحياة والموت.

وفيم يلي سنتكلم عن المعاني السيكولوجية للبلوغ:

الفطام السيكولوجي

من بدء الخليقة عرفت الحاجة إلى الحافز الذي يدفع الإنسان بين الثانية والعشرين إلى الانفصال والاستقلال.

فإذا كان هناك فطام للطفل، فطام جسدي عن الرضاعة، فلابد للبالغ من فطام سيكولوجي. فطام عقلي عاطفي. وفي كلتا الحالتين يستلزم ذلك الفطام تبديلاً في النظام والعادات. ومن هنا منشأ الاضطراب في العواطف والسلوك. فإن ذلك يحدث دائماً كلما آن للإنسان أن يغير عادة ويكون أخرى. وذلك ظاهر بالأخص في الفطام السيكولوجي فإنه لابد من تغيير عادات البالغ، وكذلك عادات والديه وأهله ورفاقه بالنسبة له، وفوق ذلك فليست هناك عادة واحدة –كما في الفطام الجسدي للطفل– بل عادات كثيرة تقتضي التغيير وقد يدعو ذلك لاتخاذ وسائل مضادة تماماً لما ألفه الطفل. ومن ذلك يتضح أهمية القيام بذلك الفطام السيكولوجي. فليكن واضحاً أن هذا الفطام لا يعني ترك الوكر العائلي فحسب. فكم من الناس قد تركوا الوكر العائلي وظلوا معلقين به طول الحياة. أي أنهم نزحوا عنه بالجسم فقط.

وليس معنى هذا الفطام. المصحوب بالاستقلال والنزعة الحرة، التمرد والثورة والغرور والوقاحة: إن الذين كان من سوء حظهم أن فطموا فطاماً سيكولوجياً ناقصاً. فساروا واستهتروا وتوقحوا. لم يفطموا مطلقاً بل هم

أطفال كبار. أطفال كبار لم ينفصلوا عاطفياً ولم يستقلوا فكرياً ولا اجتماعياً ، ولكي يكون الفطام تاماً، يجب أن يتحرر المراهق بإحساساته أولاً، بغير ميل ولا حنين إلى الرجوع للقيود الأولى.

ومن الأسف أن تربية المراهق قد وقعت على كاهله وكاهل أهله وله فيها نصيب كبير.

والسبب في ذلك أن حاجات القبيلة والإنسان الأول كانت تقتضي إعداد الصبي بسرعة لدور الرجولة.

تلك الحاجات كانت دواعي الحرب والكفاح، لم يكن هناك أمان ولا استقرار، فكان على القبيلة أن تعد رجالها للدفاع والهجوم، وعلى هذا كانت القبيلة كلها تشترك في ذلك الإعداد لأنه في صالحها، أما في عهدنا الحاضر فقد صرنا في حالة نسبية من الأمان، فلم يعد هناك حاجة لذلك الإعداد المبكر، ولذلك أهمل ذلك الاحتفاء الفخم بالمراهقة وترك بالتدريج أمر ذلك الدور للمراهق نفسه ولوالديه وأهله، ولذلك صارت المسألة معقدة صعبة. ومفتاح المسألة في أن تغير العادات التي أشرنا إليها سابقاً، يقتضي أن يتعلم المراهق كيف يدع ما اعتاد أن يقبض عليه ويتمسك به بشدة.

إن الطفل لا يترك الكرة التي في يده إلا مرغماً، وبعد أن يبكي ويغضب، فما بالنا بالمراهق الذي اعتاد هذا الشيء أو ذاك وعليه أن يترك ما اعتاد عليه وأن يتعلم كيف يترك، كيف يترك الطفولة بملاعبها ومراتعها بكل ظروفها وأحوالها، وعليه فوق ذلك بعد أن يترك أن لا يشعر بحنين إلى

الرجوع وهو ما يعبر عنه بالإنكليزية بكلمة **Homesick**.

وقد اتضح لكثير من الباحثين في علم النفس أن من أهم أسباب ضعف الشخصية عدم قدرة المراهق على الانسجام مع الجو المحيط به نظراً لاستمرار ذلك الحنين إلى القيود الأولى، وتلك القيود الأولى فيها أشياء تغري بالرجوع إليها، كحضن الوالدين، وحمايتهما، والمسكن السهل، والغذاء الذي لا غناء فيه، وهكذا.. ولكنه قد آن للمراهق الذي يمشي إلى الرجولة أن ينسى ذلك الحضن، وعليه أن يدبر لنفسه المسكن والغذاء، وعليه بالاختصار أن يكون قادراً على تدبير أموره بنفسه.

وكما يجب أن يكون فطام الطفل عن الرضاعة تدريجياً فكذلك يجب أن يكون فطامه العاطفي والعقلي تدريجياً كذلك. ويمكن بدء هذه العملية منذ الطفولة الأولى، يمكن إعداد الرضيع لحالة البالغ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يفهم الوالدان أن النمو العقلي وإن لم يكن منظوراً فهو حادث، فإذا كانت قدم الصبي تضيق بالحذاء كلما شب، ويجب تغييرها، فكذلك يجب مراجعة العادات والعواطف والانفعالات وجعلها مطابقة لمراحل العمر، مثال ذلك أن يتعلم الطفل مبكراً كيف يرتدي ثيابه بنفسه، وكيف يمشي في الطريق غير معتمد على أحد، وكيف يدخل فراشه وحده بغير انتظار ليد الوالدة لتبقى بجواره وتسوي ذلك الفراش ويتعلم كيف يتخلى عما يطلب مطيعاً بلا غضب ولا تأفف، وكل مشاكل المراهقة هي في الواقع مشاكل ناشئة من سوء إعداد الطفل لتلك المرحلة، وأشد المشاكل تعقيداً يحدث حين يواجه المراهق فجأة ذلك التغيير المطلوب منه في حياته الجديدة، فكل الاضطرابات النفسية والعصبية منشؤها تلك المفاجأة

المترتبة على سوء الإعداد، والعيب في ذلك يقع على الأم أكثر مما يقع على الأب، فالأم هي التي تتمسك بالسيطرة على ابنها، وهي التي تأبى أن تنتزعه من حضنها، ومن ذلك سر "القفشات" عن الحماة، سيكولوجية الحماة تتوقف على تمسك الأم بالسيطرة على ابنها، وقد يكون للأم بعض العذر؟ وبخاصة الأم الحديثة، فإن الأم القديمة التي كانت تنجب من الأولاد عدداً غير محدود تظل تؤدي وظيفتها لسن متأخر، أما الأم الجديدة التي تحدد نسلها فما تكاد تصل إلى سن خاص حتى تشعر بأن أولادها الذين ربتهم وتعبت في السهر عليهم سيمضون عن بيتها، وسيتقلص ظل سيطرتها عليهم، فيشق عليها هذا فبدون أن تفكر وتتروى تتمسك بخيالها الذاهب وسيطرتها المفلتة. وما أشبه هذا بتاجر يرى حانوته أغلق.! أو طبيب يرى عيادته قد ذهبت من يديه.! وزيادة على ذلك فالأم قد اعتادت أن تملأ فراغ حياتها بذلك العمل وهو تربية الولد. فإذا صارت حياتها خالية من ذلك زاد الكرب ضعفين. على أن الأم قد تبالغ في السيطرة حتى لقد ضربت الأمثال عن أمهات استبقوا أولادهم عزاباً حتى شابوا وهم كذلك بغير زواج. وذكرت الدكتورة هولنجويرث أن امرأة اشترطت في وصيتها أنه من شروط الميراث أن يذهب ابنها بعيداً عن زوجته ليتمتع بالثروة وحده! وأصرت كذلك أن يدفن ابنها بعد موته بالقرب منها.

وقد فسر الفرويديون العلاقة بين الأم وابنها أنها علاقة جنسية. ولا حاجة بنا إلى لهذا التفسير بتاتاً. فإنه يكفينا أن الأم مصدر الحنان والدفء والراحة والغذاء، ويكفي هذا تفسيراً لسر تتعلق الابن بأمه. وحظ البنت

في هذا كالولد. وما يصيب الولد في الفطام السيكولوجي الناقص يصيب البنت سواء بسواء.

وأخيراً ما هي علامات الفطام السيكولوجي الناقص؟ أول تلك العلامات، أن يطلب المراهق عطفاً خاصاً وتقديراً خاصباً من ذوي الأمر. فإذا لم يصبه، غضب، أو ترك العمل، أو شعر بالاضطهاد وأغلب الشبان الذين لم يفلحوا في أعمالهم خابوا لأنهم تطلبوا من ولى الأمر ما كانوا يجدون من الوالدين فلم يجدوا، فتركوا العمل، أو قصروا فيه وخابوا من العلامات الدالة على نقص الفطام السيكولوجي، الإخفاق في الزواج. فإن الشخص هنا يطلب من الثاني أن يكون له أباً أو أماً. أو يطلب منه أن يدلله ويخدمه ويعابثه. أو ينتظر منه أن يتصرف في كل شيء. إذا تعود في منزل الوالدين أن يدع لهما كل شيء.

ومن العلامات الدالة على سوء ذلك الفطام أيضاً أن يكبر الابن ويشب، فيسكن إما قرب منزل الوالدين أو على الأقل في المنطقة التي يسكنونها. ومن العلامات كذلك أن يتزوج الشخص بمن يكبره سناً.

وعلى كل حال فالفرق بين المفطوم وغير المفطوم سيكولوجياً أن الأول إذا ظفر بمحبة ولي الأمر عد ذلك شيئاً طبيعياً. وإذا لم يظفر به لم يجزع لذلك كثيراً. بخلاف الثاني فهو ينظر لذلك كأنه أمر خطير وقد يؤثر في مجرى حياته تماماً.

ولقد بينا لزوم ذلك الفطام وقلنا أنه واجب للتوازن بين الشخص والوسط الجديد وقلنا أنه واجب في تلك المرحلة حتى إذا فرض أنه إذا

مات الأب مبكراً، لم يجد الابن نفسه عاجزاً كليلاً.

وهناك سبب آخر بيولوجي: ذلك أن القانون البيولوجي للفروق الفردية تقتضي أن يحدث ذلك الفطام. إذ أنه من الثابت أن الأب والابن مهما تشابها، يختلفان في الأذواق والمشارب اختلاف جيل عن جيل. وأن على الجيل الجديد أن يستقل بذاته ومعتقداته وأفكاره وعاداته فعليه أن يتحرر من قيود القديم ليكون له ذوق جديد ورأى جديد ومذهب في الحياة جديد.

ولا يجب أن يفهم من قولي أني أرى تمام الانفصال بين الآباء والأبناء. أن هذا لا يمكن ولا يجوز. وإنما الذي أعنيه أن تبقى الصلة بين الشاب ووالديه، بعد المراهقة صلة الذكرى لمكان عزيز، وصلة الاحترام للوالدين اللذين ربياه صغيراً. وصلة المودة والمحبة للركن الذي منه نشأ وفيه ترعرع. أما أن يبقى ببيته وبينه قيود تشده إليه وتقيده به وتجذبه له فيولي وجهه نحوه بعد أن كبر وشب فهذا ما لا نريد.

الجنس والمراهقة

قلنا إن المراهقة الصالحة هي التي يمكن فيها الموازنة بين حاجات الشاب من ناحية، والوظيفة والحرفة، والمجتمع، والحب والزواج من ناحية أخرى.

وقلنا أن المراهقة امتداد للطفولة. فتؤكد الآن أن كل عيوب الطفولة تزداد ظهوراً كلما ازداد العجز عن الموازنة. وكل الأشياء التي تركت لعمل الزمن يصلحها تتضح عيوبها أكثر فأكثر. فعندما يصطدم الشاب بمشاكل

الحياة، فيعجز عنها يهرب بطريقة من اثنتين يقلد الكبار في الإسراف والشرب توهما أنه بذلك صار رجلاً ومن هنا كثرة الجرائم الخلقية، التي ما هي إلا ضرب من الهرب من حقائق الحياة.

والطريقة الثانية أن يتجنب مواجهة المشاكل فيصير مريضاً بالعصبي أو النقروز وسنبين معنى ذلك بالضبط عند الكلام عن فرويد وآدم والفرق بين العصبي والمجرم. أن العصبي تتوفر فيه النية الحسنة ويظهر عليه العجز. والمجرم تتوفر فيه النية السيئة ويظهر عليه كرهه للمجتمع.

وليس في مسألة الجنس شيء جديد في المراهقة غير أنها امتداد كذلك للجنس في الطفولة، وأن كل عيوب التربية الجنسية في الطفولة تظهر في المراهقة. ومن خواص المراهقة أن يشعر المراهق بحريته وقد يغالي في قيمة نفسه، ويبالغ في أهميتها. أي أنه –في رأي آدلر– يحاول أن يظهر كبيراً فيتمادى.

فإذا اعتقدت فتاة أنها تطاول أمها قدراً، واعتقدت أن أمها لا تحلها المقام اللائق بها في خيالها أو أنها تظلمها وتحتقرها فكثيراً ما يدعوها الغرور للاستسلام لأول رجل. وهذا يفسر لنا ما نسمعه عن فتيات كن آية في الاستقامة، انحدرن إلى الفساد بغير سبب ظاهر.

وكم من مومس بدأ تاريخ حياتها في المراهقة. وبخاصة إذا نشأت في وسط تعتقد أنها لا ترى أحداً يحبها فيه.. ولو تتبعنا تاريخها قبل المراهقة لعلمنا أنها كانت في نفسها تذم جنسها كأنثى، ولذلك لم تكد تملك حريتها حتى باعت جنسها بيعاً رخيصاً. فالقسوة على البنت إما أن تجعلها تكره

جنسها، أو تؤدي بها للشذوذ الجنسي، وإما أن تنحدر بها إلى حيث تعرض نفسها عرضاً بخساً. وإما أن تدفعها إلى حيث تنشد ألفاظ العطف والحنان حيث وأين تجدها.

وليست أخطاء الجنس في الذكور غير امتدد للعيوب في الطفولة. فكم من طفل جميل المنظر سمع بأذنيه تدليله كأنثى. فنشأ أقرب إلى الأنوثة. فالواجب إذن أن يحدد للطفل اتجاهه من أول الأمر. ولقد ذكرنا في باب سيكولوجية الطفل أنه يجب الامتناع بتاتاً عن تهييج المناطق المحرمة بالتقبيل واللمس. ويجب الامتناع عن التهييج العاطفي بالإدلاء بمعلومات جنسية لا لزوم لها. فقد ذكرنا في الفصل السابق ما يجب أن يقال وما لا يجب.

ونعود فنذكر للمربين والوالدين أن المراهقة مرحلة موازنة وإعداد لا مرحلة تغير وتبدل. فكل ما كان جارياً في الطفولة يسير في مجراه. فالجسم ينمو والعقل ينمو والغدد تتفتح وتنشط وتزدهر وإنما يتطلب هذا النمو إعداداً جديداً لوسط جديد. وتهيئة لجو جديد.

المراجع:

Psychology of Adolescence, Holligworth.
What Life Should Mean to you, Adler.
Mental Hygiene, Blanchard and Ereve.

نفسية الجماهير

COMMUNAL PSYCHOLOGY

صدق الكاتب الشهير ليونارد وولف في كتابه "بعد الطوفان" إذ قال أن نكبة الحرب الحاضرة هي نكبة سيكولوجية فقد كانت النكبات السابقة في التاريخ والتي بسببها انهارت المدنيات وتداعت إما طبيعية أو اقتصادية. إما نكبة اليوم فمما لا جدال فيه أنها نكبة سيكولوجية. ونعني بذلك أنه مهما يكن من الأسباب الظاهرية، فإنها أسباب سطحية يستتر ورائها العقل الإنساني في "حالة ديناميكية" كالبركان المدفون في جوف الأرض. وقد صدق وولف كذلك حين عاب على كتاب التاريخ أنهم لم يكونوا غير مسجلين للحوادث. ولم يقصد أحد لتفسير البواعث السيكولوجية لتلك الحوادث. لم يقصد أحد لفهم الدوافع السيكولوجية التي طبعت جيلاً بطابعها وقوماً بخصائص معينة. لم يقصد أحد لدراسة سيكولوجية الفرد متفاعلاً مع المحيط، والمحيط متفاعلاً مع الفرد.

فلنتذكر أن الفرد ينحدر من أصول غطاها الطلاء الذي ندعوه المدنية وغشاها العشب الذي ندعوه الثقافة. ولكن تلك الأصول لم تمح آثارها ولن.

قال ويليم براون على سبيل المزاح أن الأصل يستحيل أن يمحي فقد قامت حضارة أثينا على تجارة الرقيق. وكان أرسطو على تفرده وأصالته لا

يزال يفكر بالعقلية اليونانية القديمة لأنه كان يمجد تجارة الرقيق.

ولنتذكر أن في كل منا صورة من الهمجي والطفل والحيوان كالأسد والنمر والثعبان.. والحمار أيضاً"!

فللنظر الآن في الغرائز المسيطرة على الإنسان المنحدر من تلك الأصول ولنسايرها في تطورها على الأجيال. تسيطر على الإنسان غريزتان كبيرتان، حفظ الذات وحفظ النوع، أو الحياة والحب، أو سمهما ما شئت، فما يمكنك أن تعدو تلك التقسيم. على أن العجيب في الغريزتين أنهما بينما تمشيان جنباً لجنب، تصطدمان اصطداماً عجيباً. ولكن تلك الموازنة لازمة للبقاء، ولقد قامت الحياة أكثر ما قامت على المتناقضات. ولكن المهم من ذلك الصراع أن في الغريزتين عوامل للبناء وعوامل للهدم. ومن ذلك اتضح أن في النفس الإنسانية ميلاً غريزيا للهدم **Frustration** قد نسميه غريزة خاصة أو نعده فرعاً من غريزة إثبات الذات، كما نشاء، ولقد قام جدل كبير بين علماء النفس اليوم عن عنصر التحدي الذي أشرنا إليه. هل هو أصيل في النفس الإنسانية؟ هل هو غريزة مقلوبة مشوهة؟ وقد اعتقد فرويد في أيامه الأخيرة أنه غريزة أصيلة تحتل جزءاً ثابتاً من النفس الإنسانية حتى لقد ابتدع شيئاً يسمى "غريزة الموت".

على أننا إذا اعتبرنا هذا الميل إلى التحدي دفاعاً طبيعياً عن النفس ومتفرعاً من غريزة المحافظة على الذات فإننا نرى غريزة أخرى متفرعة منها، وهي غريزة القطيع **Herd** ولهذه كما لتلك أبلغ الأثر في نفسية الشعوب. والعوامل التي تسيطر عليها. فمن مميزات تلك الغريزة:

"١" يتشابه أفراد القطيع "٢" يقلد أفراد القطيع بعضهم بعضاً "وهذا ما نسميه في العصر الحاضر بالموضة" "٣" يتبع أفراد القطيع زعيماً يكون أسبقهم إلى الطليعة. يقول هافيلوك ليس في هذا أن الجيش الإنساني يشابه جيشاً متشابه الأفراد، في أوله قادة يمشي الأفراد وراءهم شبه منومين، وآخر الجيش الخدم "٤" تسيطر على القطيع أحكام عامة يكون لها عند أفراده حكم القداسة، وهذه الأحكام هي المعتقدات والعادات والتقاليد وهذا ما اصطلحنا على تسميته بالخلق. وتلك المعتقدات والعادات والتقاليد انحدرت إلينا من صلب التاريخ وتغلغلت في الأمم جيلاً بعد جيل "٥" تسيطر على القطيع "نواه" وزواجر تسمى عند علماء النفس Tabos وأعتقد أن كلمة "المحرمات" قد تكون ترجمة صادقة. وقد أحسن شوبنهاور عندما شبه أفراد القطيع بالقنافذك عندما تلجئهم الضرورة يتقاربون مضطربين. ثم يستعملون أشواكهم بحكم طبيعتهم فينفصل الواحد منهم عن الآخر وقد نظر هذا إلى ذاك نظرة حذر وشك. تلك الأحكام التي تسيطر على القطيع هي بعينها اليوم ولكنها اتخذت زياً مخالفاً ومظهراً خادعاً. فالديمقراطية هي تشابه الأفراد والديكتاتورية هي هؤلاء الأفراد يمشون شبه منومين وراء زعيم يسيطر عليهم. والقومية هي تجانس أفراد القطيع تجانساً تاماً: تجانساً في الأصل والدم والمنبت.

غريزة واحد تتسلل إلينا متخفية حيناً ومنكشفة أحياناً على أنه قد يخيل لزعيم أو عظيم أنه يأتي بشيء جديد، أو نظام مبتدع ولكننا على رأي وولف– إنما نمشي بمشعل السلف وأن الموتى يتحكمون في الأحياء. على أن الغريزة القديمة حين تتسلل متخفية تزيد غموضاً باستقرارها في العقل

الباطن، فنحن نعمل بها ولا نفطن إليها. ولقد صدق بروان حين قال أن الزعيم الذي نختاره بمشيئتنا ونرضى عنه إنما هو ذلك الزعيم الذي يمثل ما في عقلنا الباطن.

إن الغرائز بما تأتي به من العادات والمعتقدات والتقاليد، هي التي تؤثر في مجرى التاريخ، وعليها قامت سيكولوجية الشعوب. ولم يكن للعقل الإنساني من الأثر إلا الذي سنشرحه بعد قليل. على أن علماء الاجتماع يذكرون صادقين أن التغير في شعب من الشعوب سيكولوجيا أي تلقينه مبادئ جديدة ومعتقدات جديدة –يأتي بطيئاً جداً. ويصادف عقبات هائلة. على أنه ينتهي دائماً إلى نظام للمجتمع جديد وشكل للحكم مخالف لما سبق فلنماش الإنسان قليلاً في التاريخ لنر أنثر الغرائز فيه وكيف أدت إلى الأوضاع الثابتة في المجتمع اليوم: ها هو إنسان خرج من الحيوانية. ها هو اخترع الكلام فأمكنه أن ينقل معلوماته واختباراته وبذلك صار إنساناً– وصارت لديه ثقافة. ولكنه لا يزال حيواناً في أنه لا يزال يمشي بطريقة تجربة الخطأ والصواب **Trial and error** هو اختراع الآلة، ثم ها هو اكتشف النار ها هو فجر المدنية يبدو باكتشاف النار والنور.. ثم ها هو الإنسان. يعتقد أنه بعد ذلك يمكنه أن يفوز بسعادة دائمة، تخالف السعادة الخاطفة التي كان يظفر بها مستتراً في الكهوف والظلمات. لقد كان لا يظفر بالأنثى إلا ظفراً عابراً، فما دام الآن قد تيسر له أن يعمل ويكسب قوته في غير عناء كبير، فيمكنه أن يستديم هذه الأنثى بقربه ها هو قد تزوج وابتنى العائلة وأنجب أولاد. ولكن الأمن والاستقرار لم يوجد بعد في الوجود، فهؤلاء الأولاد الذين كانت تربيتهم لا تخرج عن إعداد

للكفاح والحرب، نظروا لأبيهم نظرة الند المنافس وأرادوا أن يتحرروا من قيود "المحرمات" التي ذكرناها، فكونوا جماعات، يتلمسون بها القوة والسيطرة. ولكنهم عادوا مكرهين إلى قيود جديدة تجعل كل أخ في مأمن من كيد أخيه، وعادوا مكرهين إلى رأي زعيم منفرد بقوته أو فكره.

تلك حالة الإنسان الأول في أبسط صورة..

هذه صورة الإنسان الأول في فجر المدنية.. أفراد متشابهون وزعيم، فماذا جرى في تلك الصورة؟ هذا المشرف، هذا الزعيم الذي ولى الأمور، ما علاقته الحقيقية بالأفراد! هل يجب أن يفني الأفراد شخصيتهم فيه؟ أم يحتفظ كل فرد بحريته، مع احتفاظه بعلاقته بالمشرف واعترافه بمقامه؟ من هنا تشعبت الآراء واختلفت الأقوال. فمن روسو إلى هيجل إلى كارل ماركس. ويهمنا أن نذكر رأي "هيجل" أن الدولة جسم حي يجب أن يحل فيه الفرد ويندمج هذا هو الرأي السائد في السياسة الألمانية والإيطالية أخيراً.

أما الرأي القائل باحتفاظ كل فرد بحريته ورأيه وإن اندمج في الدولة فهذه هي الديمقراطية –الواقع أن باطن المسألة ليس في شكل الحكم، ولكن في البحث عن أي صور المجتمع تعطيه قوة وتماسكاً وتضمن عدم اعتداء أفراده، الواحد منهم على الآخر، وتضمن أن يكونوا قوة تمنع اعتداء الآخرين عليهم. فكأن المجتمع يشعر شعوراً غير واع بذلك الميل إلى الاعتداء الأصيل في النفس الإنسانية والذي لم تهذبه القيود والنواهي التي اتخذت فيما بعد شكل القوانين– أما أنه أصيل في النفس الإنسانية فثابت

من أنه عند الإنسان البدائي شيء أولي مباشر أقصد أنه صادر من تلقاء النفس مباشرة، لا ضمير ولا ندم– وأما في المثقفين، فهو ثانوي، وينشأ أكثر ما ينشأ من فقدان الحب. فإن نشدان الحب صفة طبيعية لازمة والناس يبغون بها القوة والسند على الأقل فإذا صدت أو أهينت ثارت عاطفة التحدي والاعتداء.

غير أن الاعتداء مصحوب عند المثقفين بالإحساس بالذنب **Sense of guilt** وهذا هو فجر الضمير.

وقد نشأ عندما كان المجتمع في أبسط صورة وصارت به قيود وزواجر، فإن النصيحة والناصح أو الزجر والزاجر ينعكسان إلى داخل النفس وتبقى صورتهما هناك قائمة– أما الناصح فهو ولي الأمر أو الوالد أو المجتمع، وقد استقر في النفس ليكون رقيباً على العاطفة المكبوتة: ومن هذا سمي عند علماء النفس الذات العليا أو الرقيب وهو الذي يعرفه العامة بالضمير. وأما الإحساس بالذنب فهو في الواقع النزاع بين الذات والذات العليا. والغالب أن الرغبة المكبوتة إما أن تمتص أو تتحول إلى صورة مخالفة، أو تنصرف إلى عمل جليل، أو تبقى مع التسليم والخضوع الذي لا حيلة فيه: وهذا هو القانون المسمى الحرمان الثقافي **Cultural Prisction** هذا الرباط الذي بين الأفراد هو الذي نريد أن نجد له تعميماً وتقوية. ويعتقد براون أن المجرم أو المعتدي لا يجرم أو يعتدي لأنه لا يحسن التفاعل مع الوسط بل لأنه بحكم تركيبه العصبي ونقص ذهنيته يرتد إلى ما كان عليه أجداده **Regression** فينال بالعنف المباشر ما يجول في رغباته ويعود إلى مرحلة تركناها كالطفولة أو الهمجية أو الوحشية ويسمى عصرنا

الحاضر عصر السيكوز أو الجنون الاجتماعي. ونعني السيكوزكبت الغرائز مضافاً لذلك ارتداد لحالة بدائية. أما النيوروز فهو كبت فقط وهذا يشفى وذاك عسير الشفاء.

إن العلاج الطبيعي، هو تقوية الشعور بالحرمان الثقافي حتى يصير قانوناً عاماً، وبالتدريج يصير هو الحل الوحيد الموفق بين مطلب الفرد والجماعة –وهذا كل ما تبتغيه الثقافة والحضارة هو القانون الذي يحقق ما نسميه اصطلاحاً بالعدل الاجتماعي. إنه قانون عالم لم يوضع لفرد ولا لأمة ولكن للإنسانية عامة. نريد قانوناً عاماً ينتظم الأفراد جميعاً– قانون الخضوع للنظام الموضوعي.

يقول كارل مانهايم في كتابه "تشخيص الإنسان": مما لا شك فيه أن المعتقدات والمبادئ التي تطبع الأجيال بطابعها وتضع الأمم في قالبها هي التي تغير النظم وتبدل أشكال الأمور. فالأمم في حاجة إلى الخلاص من عقد اجتماعية مكبوتة في العقل الباطن الشامل.

فالشعوب في حاجة كالأفراد إلى معالجة المكبوت، إلى معالجة غريزة الاعتداء، إلى مداواة الإحساس بالذنب، وينصح مانهايم بعلاج اجماعي يسميه التحليل النفسي العام **Collective Psycho- analysis** ويمكن القيام به بالتحدث إلى الناس في جماعات، وتكرار ذلك الحديث بواسطة أطباء متطوعين، فيتخلص الناس بالتدريج من العقد المكبوتة، ويشفون من النيوروز العام.

هذا أثر الغرائز. وأين أثر العقل؟ أثره قليل. لقد كانت هناك محاولات

لعقول جبارة خلال التاريخ لإقامة عالم يجمع أفراد متفاهمين ويضع العالم على أسس ثابتة.ومن هؤلاء المفكرين ديكارت: فهو الذي لفت الناس إلى عظمة العقل الإنساني: ولا ندري إن كان هذا خيراً أو شراً للإنسانية. فقد ذكر فريدمان في كتابه عن الحضارة الغربية أن الكتاب والفلاسفة الذين مجدوا العقل وأشعروا الإنسان بالسيادة على الطبيعة –وأكثر هؤلاء ألمانيون– جعلوا الإنسان المفكر في عزلة قاسية. شبه ماردجبار يسكن في قمة جبل. تلك العزلة القاسية سببت قلقلة اجتماعية خطيرة تتجلى في الأدب الألماني. ومن يقرأ "فاوست لجيته" يتجلى له ذلك واضحاً جداً. أن الشعور بالسيادة يقتضي تلمس الوسائل لتحقيق هذه السيادة. ومن هذا ندرك لماذا مشت القومية كمبدأ حديث في الغرب. وهذا المبدأ في رأي المؤرخين الحديثين السبب المباشر للنكبة التاريخية الحاضرة. فلقد ذكر جوستاف لوبون وأيده آخرون أن جميع الأزمات والنكبات تحل حين تأخذ الشعوب في التفكير. لأنها قلما تفكر. فإذا فكرت سارعت إلى تحقيق الفكرة والويل إذن لها ولجاراتها. وليس الشعور بسيادة العقل مجرد خيال..

إن المخترعات الحديثة تدل دلالة بينة على أن العقل سيد حقيقي، فلقد سهل المواصلات، فصار العالم أمة واحدة. وزاد انتشار التعليم فزاد الشعور بالتفوق العقلي، تسلح الإنسان فزاد شعوراً بقوته، واعتزازاً بفرديته فمشت في العالم فكرة العالمية، والدولية وقام لهما أنصار ومؤيدون، ولكن إيمان الإنسان بتفوقه الفردي قضى على كل ذلك وسلح القومية بسلاح ماض قضى على كل مبدأ آخر. هذا الشعور بالتفوق الذاتي هو سر الاستعداد الحربي الضخم عند كل دولة وجدت من العلم سبيلاً للتسلح

ومن الرخاء الصناعي مادة تساعدها على ذلك.

فها هو العقل قد سلح قوماً ما تزال عاداتهم وتقاليدهم تزحف ببطء وتتغير ببطء. فكانت النتيجة قومية فاستعمار، فاستثمار فاستثمار، فحرب طاحنة..

وختاماً يجب أن نعلم أن كلمة "شعب" هي كلمة سيكولوجية تسيطر عليها عوامل خاصة، فليس كل زحام شعباً. وليس كل خليط من الناس "شعباً" فإن نظاماً سيكولوجيا عاماً يسيطر على ما نسميه شعباً حقيقياً وهو:

"١" إن نداءاته صادرة من عقله الباطن.

"٢" عندما تلتئم هذه الجماعات السيكولوجية حول فكرة واحدة تنمحي كل فكرة أخرى أي أن الفرد تنمحي شخصيته في غمار المجموع.

"٣" يحدث من ذلك لذة أو سرور أو حماس في العاطفة بحيث يميل الشخص إلى تكرار التجربة. ومن هنا نعلم سر إقبال الناس على مغنية شهيرة كأم كلثوم. وسر إسرافهم في الحصول على مراكز في المجالس النيابية أو البلدية ولا يعرف من الساعات ما تتأجج فيه العاطفة تشتعل مثل الساعات التي يجتمع فيها الجمهور حول فكرة بعينها أو حول شخص يمثل تلك الفكرة. على أن هناك أمراً عاماً تلتقي فيه الفرق مهما اختلفت لتكون شعب واحد، ذلك هو الخطر فينسى الإنسان ذاته وينسى كل شيء غير ما يتجلى للشخص أو ما يسمعه أو ما يدركه فمن هذا يرتكب الناس أكبر الحماقات في أوقات الخطر إذ يدوس الرجل طفله أو يقتل

أخاه وهو لا يشعر.

"٤" تسيطر عاطفة العدوى أو المحاكاة على العقل الاجتماعي، فالفكرة تنتقل بسرعة البرق. فإذا شب حريق مثلاً فقد يهرب قوم لم يروا الحريق بأنفسهم. يهربون لأنهم رأوا ناساً مفزعين مطلقين سيقانهم للريح.

لقد استغل علماء النفس هذه الخصائص النفسية للشعب في التأثير عليه وتوجيهه. ومن الزعماء من يتقنون فهم تلك النفسية اتقاناً تاماً. فقد استغلوا هذا الفهم في ناحيتين الأولى بث القوة في الأفراد. فإنه يكفي أن يلمح الشعب في وجوه بعض الزعماء آيات الاطمئنان فيزول الرعب ويتماسك الناس ولا يهربون. والثانية في التأثير بالكلام وقد ذكرنا ذلك عندما تحدثنا عن طريقة كارل مانهيم في العلاج بالتحليل العام.

المراجع:

Communal Psychology by Wooef.

Group Mind, M'cdougal.

Medical Psychology, William Brown.

Diagnosis of Man, Karl Manheim.

سيكولوجية المرأة

Psychology of woman

الغرض من دراسة سيكولوجية المرأة الوصول إلى حل للمشكلة القائمة اليوم بين الجنسين. والصحيح أن المشكلة لم تقم اليوم فقط، بل قامت يوم أن رضيت المرأة في الشركة التاريخية الاجتماعية التي عقدت بينها وبين الرجل أن يكون نصيبها من العمل، البيت والأمومة، ونصيب الرجل الإنفاق على البيت وحماية الأم والأولاد، وما يتطلبه ذلك من السعي والحركة والجهد. المشكلة قامت من ذلك العهد وإنما سكتت المرأة راضية بقسمتها، راضية بأن تكون لها قيمتها في المجتمع، فما دامت هي التي تنجب الرجل، فكل قيمة اجتماعية للرجل مردودة إليها، على شرط أن يعترف لها بأنها صاحبة الفضل. ومرت عهود وعهود رضيت المرأة فيها بقسطها المتواضع. ومرت عهود وعهود، استعبد الرجل فيها المرأة، وعدها من سقط المتاع، ولكنها إزاء ذلك جعل كل حياته وقفاً على إسعادها من الناحية الجنسية كما يشهد بذلك دارسو المسألة الجنسية عند الإنسان الأول، وعند القبائل الموجودة اليوم والتي لا تزال في حالة بدائية.

فماذا حدث إذن؟ ما الذي غير وجه المسألة، ما الذي حدث حتى ثارت المرأة وطالبت بحقوقها المضمومة، أي مساواتها بالرجل؟ الذي حدث أن التطور الاجتماعي حول نظر الرجل إلى أشياء أخرى غير البيت والزوجة، وزيادة على ذلك فقد قلل أهمية البيت بما أحدثه الرخاء

الصناعي من إمكان الحصول على حاجات البيت من السوق. فما كان يطهي أو يحاك أو يصنع بالمنزل على أيدي الزوجة صار من السهل شراؤه. إذن فقد قلت أهمية ما كانت حياة الزوجة تقوم عليه وتدور حوله. وإذن فقد قلت أهميتها هي بالتبعية. أما الرجل فلم يعد يعني بالمسألة الجنسية عنايته بها أول الأمر. أو بالأصح لم يعد يجعلها وقفاً على مخلوق بعينه يتفنن في إسعاده ويسهر على إرضائه وإن كان في الوقت ذاته يتفنن في استعباده والحد من حريته.

إذا فقد فسد نظام الشركة القديمة، ووجب النظر في تعديله بعد أن صار أحد الشريكين وهو الرجل. ينظر نظرة مختلفة للشريك الآخر. وهو الزوجة. وبعد أن صار يذيع أن المرأة مخلوق لا يصلح إلا للعمل الصغير المتواضع وهو البيت والأمومة وأما ما يقوم به الرجل من الأعمال الجليلة فلا تستطيع المرأة أن تساهم فيه.

وما دام العالم قائماً على صنفين من الجوع، الجوع الجنسي والجوع العضوي، ما دامت الشركة بين الرجل والمرأة قائمة على الاشتراك في الناحيتين الجنسية والاقتصادية، وما دام الرجل قد أهمل أو أغفل الكلام بصراحة عن الجزء الأول من الشركة وما دامت المرأة قد عانت عصوراً من الكبت والحرمان، حتى لم تعد امرأة تخلو من العصبي "أو الهستريا" ولكن حياءها يمنعها أن مصارحة الرجال عما أغفلوه، ما دام ذلك قائماً، وقد أخذ العالم كله يتحدث عنه الآن فلننظر في الجزء الثاني من الشركة وهو الجوع العضوي، وأقصد بالجوع العضوي الحاجة إلى القوت. أقصد المسألة الاقتصادية للعالم والتي ترمي عاجلاً أو آجلاً إلى توفير أسباب الرخاء

للناس جميعاً– وحين أقصد المسألة الاقتصادية أقصد المشكلة الاجتماعية إذ لا فرق في الواقع بين هذه وتلك. وأقصد بالمشكلة الاجتماعية ما هو قائم في العالم اليوم من العقد التي تتطلب الحل، والمشروعات التي يرجى منها إقامة العالم على قواعد ثابتة، يدخل في تلك المشروعات التعليم والصناعة والتجارة وينطوي تحتها المهن والحرف التي تتصل بتلك الأشياء، ولا ننسى السياسة وأشكال الحكم كل تلك الأمور الجسام يقوم بها الرجل وحده وللمرأة فيها نصيب ضئيل. لقد أخذ الرجل على عاتقه كل المهام الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية بحجة أن المرأة قاصرة عن معالجة تلك الشئون. ولقد صارت تتردد تلك التهمة وتتناقلها الألسن، حتى حدث عند المرأة "مركب نقص"، حدا بها إلى شيء من الثورة والتمرد.

فموضوع هذا البحث هو. هل للمرأة حق في المطالبة بحقوق ما؟ وإذا سلمنا لها بتلك الحقوق. هل تستطيع القيام بها وهل بناؤها السيكولوجي يساعدها على ذلك؟ وفوق ذلك هل لها الحق في لوم الرجل؟ هل لها الحق في اتهام الرجل بظلمها والاعتداء على حقوقها؟

سنتكلم عن المسألة الجنسية ومعالجتها في مقال تال وإنما الآن سنتكلم عن الفروق الجنسية بين المرأة والرجل، وسنصل إلى نتيجة يتضح منها أن ما حدث اليوم في روسيا، وهو استطاعة المرأة القيام بمهام كبيرة ما كان في الحسبان أنها تستطيع القيام بها، مستند إلى حقائق سيكولوجية وفسيولوجية حديثة من الإنصاف للمرأة وللرجل معاً الإفصاح عنها والتدليل على صحتها.

وقد اتبعنا في بحثنا نفس الطرق التي اتبعها هيمانز في كتابه سيكولوجية النساء، وهافيلوك اليس في كتابه "الرجل والمرأة" وهذه الطرق علمية محضية وقائمة على إحصاءات فيسولوجية دقيقة واستعراض للتاريخ البيولوجي للرجل والمرأة والطفل والهمجي والفرد وعلى مراجعات تاريخية بيوجرافية، وعلى أسئلة موجهة للمعاهد والمدارس، وأخيراً على أدق المعلومات السيكولوجية الحديثة.

والبحث يدور حول نقطة واحدة هي أهم ما في الموضوع. الطبيعة قد أعدت المرأة للأمومة وخصصتها لذلك وجعلت تركيبها الجثماني والفسيولوجي مهيئا لهذا. فهل معنى هذا أن الوظيفة التي اختصت بها المرأة، قضت على مواهبها الأخرى. هل معنى اختصاصها بالأمومة والبيت أنها قد طمست عندها القدرة على التفكير العالي والتدبير البعيد المدى؟ هل معنى اختصاصها بالأمومة أنها لو أعطيت مقاليد الحكم والسياسة تتصرف في أعمال الأمة والشعب كما تتصرف في أحوال أطفالها؟

وسؤال آخر هل ذكاؤها في تربية الأولاد وتدبير شئون العائلة له نفس القيمة أو الصفة التي للرجل العالم أو المخترع، أو بعبارة أخرى يمكن أن يتحول بسهولة من هذا الميدان لذاك؟؟

لكي نضع الأمور في نصابها نبحث المسألة من ناحيتين الأولى مسألة الجسد وفيسيولوجيته، وأهم ما في هذا الباب صفة العمليات الفسيولوجية عند المرأة أو ما يسمى في علم وظائف الأعضاء "بالتمثيل" **Metabolism** ثم امتحان الحواس وحدتها، ثم امتحان القوة الجسدية

وقدرتها على الاحتمال ثم فحص الجمجمة والمخ لعلنا نعثر على فروق تنير لنا السبيل ثم فحص باقي الأعضاء حجماً ووظيفة لعلنا نعثر على فروق هامة والواقع أن تلك الأبحاث أجريت بدقة كبيرة وقام بها علماء ممتازون، وقد اختلفت بياناتهم أحياناً ولكنهم اتفقوا على أشياء أساسية لا سبيل إلى نقضها. ومن الحق أن نقرر أن الآراء قد تبدلت في حين أن معتقدات كثيرة ظلت لا تناقض عصوراً طويلة فمن تلك المعتقدات مثلاً ما كان يظن من أن القوى المفكرة العالية تتركز في الجزء المقدم من المخ. وبناء على ذلك اتهمت المرأة بأنها أقل ذكاءاً من الرجل لأن الجزء المقدم من المخ عندها أقل حجماً من الذي عند الرجل. فلقد صار من الثابت اليوم أن القوى المفكرة العالية تتركز في الناحية الجانبية للمخ **Parietal** وهنا اتضح أن المرأة تساوي الرجل، وأحياناً تفوقه.

وكذلك ما كان يعرف من الناحية التشريحية المقارنة في أن المرأة في عظامها أقرب إلى تكوين الطفل، وبذلك تكون متخلفة عن الرجل في سلم التطور.

فقد ثبت أن سلم التطور يحمله الطفل، برأسه الكبير وجلده الناعم شكل بطنه ورجليه وذراعيه وأن الرجل حين يكبر ويهرم ينحدر إلى شكل القردة قبل أن تتطور، فالطفل إذن يحمل علم التطور. وما دامت المرأة تشبهه في التركيب فهي أسبق في درجات التطور البيولوجي. وهذا ينفي علمياً ما قيل أن المرأة "رجل ناقص"! وغير ذلك من الأقوال التي لم تعد تطابق العصر العلمي الحديث.

ثم نبحث المسألة من ناحية ثانية غاية في الأهمية، وهي الناحية النفسية البحتة وتنقسم إلى قسمين العاطفة والذكاء، والكلام عن هذين يقتضي الكلام على العقل الواعي عند المرأة **Conscious**.

ثم عن العقل الباطن، والفروق الموجودة بينهما عند الرجل والمرأة المرأة ابنة الطبيعة، وأصدق ممثلة للطبيعة، والمحافظة على أسرار الطبيعة، والمرأة هي كذلك المخلدة للنوع البشري.

إن طلبة علم الحياة لا شك يعرفون أن "الأميبا" وهي الخلية الواحدة الحية التي تؤدي كل وظائف الحياة، تتوالد بالانقسام. وقد كان من الجائز أن تظل هذه الطريقة إلى الأبد بدليل أن هذا التوالد هو بعينه الذي يحدث في الخلية التي منها يتكون الجنين. وقد ثبت علمياً في بويضات بعض الحيوانات أن هذا التوالد يحدث بمجرد تنبيه الخلية "بإبرة أو دبوس مثلاً" فما الذي جرى في الطبيعة حتى أدى إلى تغير مجرى الحوادث؟ عندما كانت الخلية بسيطة، كان التوالد بالانقسام بسيطاً كذلك، ولكن عندما أخذ التطور يجعل المخلوقات أكبر خلايا وحجماً وأكثر تعقداً، كان لابد من "تقسيم العمل" لابد من خلية تقوم بوظيفة التناسل وأخرى تقوم بالتنفس وأخرى تقوم بالإفراز وهكذا. وقد أدى هذا التقسيم في العمل إلى إعطاء طابع خاص لكل من يقوم بعمل خاص واختصت خليته بالتناسل. وصار لها طابع الأنثى لأنها تخصصت في ذلك. ومن ثم صار كل ما فيها موافقاً ومعداً لتلك الصفة ومهيئاً له. وصار على الذكر حماية تلك الأنثى التي كبلتها وظيفتها وقعدت بها. وصار عليه كذلك أن يجلب القوت لها ولصغارها وصار كل ما فيه مهيئاً ومعداً وموافقاً لتلك الصفة. المفروض في

الأنثى القعود والبقاء والانتظار والمفروض في الذكر الحركة والحرية والتنقل.

المفروض في الأنثى الرقة والحنان والمحبة والعاطفة. والمفروض في الذكر قوة الجسد وسعة الحيلة والعقل ليستعين بذلك على حماية العائلة من ناحية، وجلب الرزق لها من ناحية أخرى.

فمن أول الأمر كانت سيكولوجية المرأة سيكولوجية أم. ومن أول الأمر تصبغ الأمومة حركاتها وسكناتها، وهي كذلك من أول الأمر معتمدة على الرجل اقتصادياً أما الرجل فسيكولوجيته سيكولوجية القوى المغامر المتنقل المستقل الحر المتحمل للمسؤليات. وكذلك صارت فسيولوجية المرأة تناسب حاجاتها السيكولوجية وصارت فسيولوجية الرجل تناسب حاجاته السيكولوجية. ولكننا عندما نقارن بينهما في كل الأمور نجد تفوقاً للمرأة في ناحية يقابلها تفوق للرجل في ناحية أخرى، حتى أنه ليصدق القول أن المرأة والرجل كقطبي الأرض لا تفضيل لقطب على قطب.

فإذا تركنا الخصائص الجنسية الأولى وهي الناشئة من كون المرأة امرأة والرجل رجل وحرص الطبيعة على أن يكون الفرق تاماً بينهما في ذلك لتكون الجاذبية تامة، فإن الفروق الجنسية الثانوية كالاختلاف في القوة الجسدية وتركيب الدم والتمثيل الفسيولوجي، والحواس والنمو وشكل العظام، هي التي تهمنا بالأكثر لنعلم هل تلك الفروق تعطى للرجل ميزة على المرأة أم لا أما من جهة التمثيل الفسيولوجي فإنه أقل في المرأة عن الرجل على الإطلاق، والتمثيل الفسيولوجي يتوقف على العمليات الكيميائية، وبخاصة على حالة الغدد الداخلية فنحن لا نجد سبباً للفروق

الموجودة إلا اهتمام الطبيعة بالجهاز التناسلي للمرأة وانصراف أكثر الغدد الداخلية لذلك وتركيز المواد الكيميائية اللازمة للعمليات التمثيلية اللازمة كالجير مثلاً في الجهاز التناسلي للمرأة فإذا نظرنا مثلاً إلى التمثيل القاعدي Basal وما ينطوي تحته من استهلاك الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون، فنحن نعلم أن الغدة الدرقية لها نصيب كبير في ذلك ولذلك لا نعجب إذا وجدنا هذا التمثيل القاعدي الذي يدل على الحالة العامة للجسم" فوجدنا الغدة الدرقية منصرفة المجهود في العمل عند المرأة إلى الناحية التناسلية. ولذلك يقل نشاطها العام في المرأة عن نشاطها في الرجل. ولما كانت كمية البول دليلاً على خلاصة العمليات العامة، فقد اتضح أن كمية البول في النهار. عند المرأة أقل من كميتها عند الرجل، ولما كان التمثيل الفسيولوجي أقل، وتركيب الجهاز العصبي عند المرأة يختلف قليلاً عن الرجل، فإن تأثير السموم وبخاصة المورفين والكحول أشد عند المرأة فهي تعتاد المورفين وتقع تحت تأثيره المرضى بسرعة بينما تمرض بالتسمم الكحولي المزمن وأعراضه بسرعة كذلك وقد لوحظ أن المرأة تتنبه حاستها الجنسية أكثر من الرجل على أثر تعاطي الخمر. وزيادة على ذلك لوحظ أن التدخين المزمن عند المرأة يؤثر على الحيض إذ يؤدي إلى اختلال دورته.

وما دام الجهاز التناسلي موضعه التجويف الأسفل من البطن ،فقد لوحظ كبر أعضاء البطن عند المرأة مع صغر القلب والرئتين عن الرجل. ولا شك أن القلب والرئتان يجب أن يكونا أكبر عند الرجل نظراً لكبر عضلاته، ولما أهلته له الطبيعة من الحركة والتنقل والسعي وتحمل المشاق، وما دمنا في صدد ذكر الأعضاء الداخلية فلنا كلمة عن الغدة الدرقية قبل

أن نترك هذا الحديث أنها في المرأة من أهم الأعضاء، فهي أكبر حجماً في المرأة من الرجل وهي التي تتحكم في مجموعها العصبي وفي سيكولوجيتها ودورتها التناسلية وكذلك في أسرار جنسها. فقد قال أحدهم على سبيل المزاح أن الغدة الدرقية للمرأة رحم ثان، وهي على ذلك أكبر في المرأة من الرجل وتتضخم في البنات عند البلوغ وفي بدأ الزواج حتى لقد كانت هناك عادة في بعض القبائل وهي جس الغدة الدرقية للتأكد من العذرة "البكارة" Virginity ولقد كان لكبر الكبد عند المرأة اعتقاد أنه مصدر العاطفة لصلته الشاعرية بالحب.

وليست أهمية الحيض قائمة على أنه نزف دموي متكرر يقلل من حيوية المرأة ويحد من نشاطها، بل أنه في انسكابه يحمل معه كمية وافرة من المعادة اللازمة للجسم عامة، كالجير مثلاً، مما يلزم لبناء العظام والعمليات الأخرى، فإذا علمنا أن حجم العظام وطولها أقل في المرأة من الرجل فلنتذكر أن هذا أيضاً سببه انصراف المعادن التي تبني العظام والجسم إلى نواحي أخرى كالمبيضين واللبن.

ولا نطيل في تفصيل الفروق التشريحية. بل يكفي أن نحيل القارئ على كتاب هافيلوك اليس "المرأة والرجل" ففيه تفصيل شامل بديع لكل ذلك. ولكننا نكتفي بذكر مسألة هامة للبحث الذي نحن في صدده وذلك هو حجم المخ.. فالمتبع هو أخذ نسبة حجم المخ لوزن الجسم، فإذا جرينا على هذه القاعدة لم نجد فرقاً كبيراً. وإذا نظرنا إلى أجزاء المخ للبحث من وراء ذلك عن الذكاء فلقد سبق أن ذكرنا تغير الآراء في هذا الباب فيما يختص بالجزء المقدم للمخ كمركز للقوى المفكرة العالية متركز في الجزء

الجانبي **Parietal** وفي هذا تفضل المرأة الرجل أحياناً ويتساويان غالباً.

أما في مسألة الحواس فليس هناك من خلاف كبير بين الرجل والمرأة لا في مسألة اللمس والشم. فاللمس عند المرأة أقوى من الرجل ومن هنا شدة تحملها للألم الجسدي. حتى لقد قال أحدهم أن للمرأة سبعة جلود عن كان للقطط سبعة أرواح.! فقد تكون المرأة أسرع في الشعور بالألم ولكنها أطول في التحمل. أما في الشم فحساسيتها أقل من الرجل؛ ومن هنا نفهم كيف تطيق المرأة الروائح القوية الشديدة بينما يضيق بها الرجل ذرعا.

نأتي الآن لذكر القوة الجسدية. فالثابت على الإطلاق أن الرجل المساوي للمرأة في الوزن– أقوى منها عضلات، وأسرع وأدق في الحركات. ويظهر أن السبب في ذلك أن كمية الماء في عضلات المرأة وفي دمها أكثر منها في الرجل.وقد اتضح كذلك أن المهارة اليدوية في المرأة من الرجل.

ومن هذا نعلم لماذا لم يفلح النساء في المعامل التي تقتضي التجارب الكيميائية والطبيعية وتحتاج لدقة يدوية خاصة. هذا ما ثبت من الرسائل التي تبودلت بين هيمانس والأساتذة في معامل الكيميا والطبيعة في الجامعات.

على إننا يجب أن نختم هذا الجزء من البحث بشيء جدير بالملاحظة وهو سرعة حكم الحواس **Sense of Judgment** عند المرأة. فسرعة حكم الحواس عملية معقدة تقتضي التضامن بين المجموع المحرك والحسي والمنعكسات العصبية.

ومعنى سرعة حكم الحواس، تقدير الأحجام بالنظر، وتقدير المسافات بالظن والتخمين، وتقدير عدد النقود بسرعة، ففي هذا ثبت ثبوتاً بيناً أن النساء يمتزن عن الرجل. ومن هذا كن صرافات في البنوك من أعلى طبقة.

ننتقل الآن إلى الناحية النفسية للمرأة، فعندما نتحدث عن النفسية نتكلم عن العقل الواعي والعقل الباطن. ولكننا قبل أن نفصل ذلك نذكر على الإطلاق أن العقل على العموم في المرأة أقرب إلى الطبيعة وأقرب إلى الفطرة، وأقرب إلى الحالة البدائية، وأقصد بذلك أنه كلما تطور العقل كلما صار تحت حكم المراكز العليا، وتحت تأثيرها، ومقيد بقيودها، ونواهيها. ولذلك فقد الإنسان المتحضر الميزة التي كانت بين الإنسان الأول والطبيعة مباشرة. فقد كان العقل الباطن على شيء من السيطرة والحرية والانطلاق. ولعل قواه هذه تفسر لنا كثيراً مما لا نعلم سره من المعجزات والخوارق. ولكي نثبت أن المرأة أقرب إلى الفطرة من الرجل نذكر أن أكثر الساحرات نساء، وكوديات الزار نساء، والمؤمنات بالخرافات والتنجيم والداعيات له نساء.

المهم من هذا أن نعرف أن العقل عند المرأة وخاصة الباطن ليس تحت تأثير المراكز العليا تماماً. ولذلك تسيطر المراكز السفلي وهي الأقل تمدناً والأكثر بدائية، ولذلك نجد المجموع العصبي في المرأة أكثر حساسية ولكن الإشارات بطيئة الانتقال ولأن العقل الباطن له تلك السيطرة في المرأة فالهستريا مرض خاص بالنساء، وقد كانت أول التجارب لشاركو وغيره في التنويم المغناطيسي عن النساء وليس التنويم المغناطيسي إلا "انفصال" العقل إلى قسمين وليست حوادث ازدواج الشخصية "جيكل

والمستر هيد" غير أمثلة من الهستريا، وكذلك حوادث المشي بالليل، وسنعود للكلام بالتفصيل عن الهستريا في الفصل الخاص بذلك، وقال علماء النفس أنه ليست هناك امرأة تخلو من أعراض هستيرية، أما العقل الواعي عند المرأة فيمتاز بشيئين الضيق والعمق ومن هنا يتضح لماذا تنتقل المرأة بسرعة من عقلها الواعي لعقلها الباطن- أي لماذا تكبت وقد لوحظ أن المرأة لا تستطيع أن تعمل عملين في وقت واحد ولا تستطيع أن تتحمل عاطفتين قويتين معاً.

ومادمنا في صدد التكلم عن العقل الباطن فلابد من ذكر ما يسميه هيمانز التأثرات الثانوية **Secondary Impressions**.

ويعني بذلك سرعة انتقال المدركات الحسية من الواعي للباطن ثم بقاؤها فيه وثباتها مستقرة في أعماقها إلى أمد طويل. فمن الواضح أنه مادام العقل الواعي ضيقاً، والباطن قوياً عند المرأة فإن المدركات سرعان ما تنقل من هذا لذاك. وكثيراً ما تثبت عند المرأة ثباتاً قوياً. فإن المرأة لا تنسى الجرح الذي يصيبها. إذا نسيه الرجل وأخذ في أمور مصرفه عنه. ويعد هيمانس قوة التأثيرات الثانوية عنصراً من عناصر الذكاء. ولكن الإحصاءات تدل على أن الرجل والمرأة يستويان أخيراً أو إن تفوقت المرأة أحياناً.

وما هو الذكاء؟ يقول هيمانس أن الرجل الذكي هو الذي يحسن التخلص من المآزق ويلمح وجهات النظر بسرعة. ويقول سبيرمان "هو الذي يحسن الحكم ويصدق التعليل" والتعريف الأول مطابق للثاني غير أن

هيماس يقول أن هذا متوقف على ثلاثة أمور: الانتباه، وسعة الخيال وقوة التأثرات الثانوية، والمزيج التام بنسب متعادلة بين الثلاثة هو العبقرية: وما دام المزيج يمكن خلطه بنسب تختلف فمن هذا تختلف صفة الذكاء أما الكمية فهي موروثة ولا حيلة لنا فيها. ولا ينقص المرأة في عناصر الذكاء إلا أن الانتباه قليل. ولكنا نعود فنقول الانتباه إلى ماذا؟ أو الاهتمام بماذا؟ الانتباه والاهتمام إلى ما اصطلح على أهميته الرجال الذين هم المشرعون والمفكرون أولاً وأخيراً! إن النساء بحكم أنهن أمهات فحياتهن تقوم على العاطفة. وحياتهن تقوم على العاطفة لضيق مركز الوعي عندهن. لأن الوعي وظيفته التفكير والتعليل. فلا يمكن الذي تسيطر عليه العاطفة أن يهتم بما يهتم به الذي ينصرف إلى التفكير.

والتاريخ يخبرنا أن أكثر عباقرة الدنيا من الذكور. وعباقرة الدنيا في نظر التاريخ هم كبار المكتشفين والعلماء والفاتحين والفنانين وقد أحصى مونتجازا –بعد أن استعرض كل السير تقريباً– أن العباقرة من النساء من ٤– ٨ في المائة من مجموع العبقريات. فلنتذكر أن هذه النسبة مجحفة بحق المرأة لأن العبقرية قد قصرت في عرف الرجال على ناحية واحدة.

فمن الخطأ أن نعتقد أن العبقرية قاصرة على الرجال ولا أن ذكاء المرأة أقل من ذكاء الرجل. فكل ما هنالك أن لذكاء المرأة صفة غير صفة ذكاء الرجل. وكل ما هناك أن عناصر الذكاء مزجت في المرأة بشكل أخرج منها طرازاً مختلفاً، ولدراسة هذا الطراز وأثره في المجتمع وبغية الاستفادة منه وجهت الأسئلة للجامعات والمعاهد والإدارات للحصول على بيانات عن صفات المرأة من ناحية المثابرة والتطبيق والإخلاص في العمل والابتكار

والاستذكار وغير ذلك. فأجمعت الآراء على أن المرأة ينقصها الخلق والابتكار، والأصالة والعمق. وقد اتضح أن النقص ليس في قلة الانتباه أو الاهتمام ولكن في اتجاه الاهتمام لشيء مناقض لاهتمام الرجل وانتباهه. فإن العاطفة مثلاً تتجه للجامد لا للمجرد أي إلى الأشخاص لا إلى الأشياء. تتجه إلى ما يمكن أن يحس ويرى ويلمس والغالب أن العاطفيين يميلون للتحدث عن الأشخاص أكثر من ميلهم للتحدث عن الأشياء.

يقول اياسترو "إن المرأة تتنبه إلى القريب المباشر، إلى العمل الكامل للشخص ذاته. بينما ينظر الرجل إلى البعيد، وللعام، وللمجرد وللمجزأ".. ويقول ريبو " إن المرأة تستذكر بالخيالات المجسمة والأمثلة الخاصة". ويقول الليس "إن النساء اللواتي يقرأن الفلسفة يملن إلى الفلاسفة البعيدين عن التجريد مثل أفلاطون ورينان".

ومن كره المرأة للتجريد، تكره المرأة التحليل، فحتى في الحب تأخذ المرأة الشخص أو الشيء كما هو وتكره التفاصيل. ويقول لوتز " إن أعمال الرجل موجهة إلى التفصيل والتشريح" ولذلك يحب الرجل أن يقارن ويقارن بينما المرأة تنظر للمجموع ولذلك لا تحب أن تقارن أو تقارن، بل تعزل وتبقى عل حدة... وعندما تبحث المرأة قضية تريد فيها حكماً نهائياً قاطعاً، بينما يهتم الرجل بالتفاصيل العامة للقضية واقتصاد المرأة يرجع إلى أنها لا تحب التجزئة، وإسراف الرجل يرجع إلى حبه للتشريح والتحليل، والخلاصة أن المرأة بحكم طبيعتها عملية ترمي إلى الواقع والنتيجة.

ولقد ثبت عن طالبات الجامعة أنهن أكثر مثابرة من الذكور وأحسن

نتائج في الامتحانات وأشد إخلاصاً للعمل ولكنهن يتبعن الطريق المعروف وينقصهن الخلق والابتكار والأصالة.

وماذا عن الفنون؟ إن الفن الخالد يصدر عن عاطفة متزنة طويلة "النفس" ودائمة النبع. وعاطفة المرأة جياشة متقطعة غير متصلة الأنفاس وموضوع الفن نوعان مرئي وغير مرئي. فالأول وهو المنصب على شيء يرى كالنقش والنحت فيقتضي أن تكون عين "الوعي" غير مغمورة بالعاطفة وإلا تعذرت عليها الرؤيا. أما الثاني كالمسرح والكتابة فليس في حاجة إلى ذلك وإن كان على العموم محتاجاً لكي يكون خالداً للنفس الطويل المتصل ولذلك نجحت المرأة على المسرح وفي الكتابة وقل من خلد من النساء في النحت والنقش للسبب الذي ذكرناه.

وختاماً لهذا المقال، نقول إن حياة المرأة النفسية تدور حول عاطفتها. وعاطفتها من التركيز بحيث لا يمكنها أن تهتم بغير شيء واحد في وقت واحد. وتعير كل مسألة جانباً واحداً تدافع عنه وتمضي إليه وهي لا تبصر غيره، ولو تحطمت في سبيله. وعلى قدر ما عند المرأة من حدة العاطفة، تحب هي أن توجد أو تخلق جواً من العواطف أو العواصف. ومن هذا نعرف لماذا يرى النساء كثيراً في حلقات البوكس وصراع الثيران.

يقول لوتز أخيراً أن العاطفة جعلت ذكاء المرأة من نوع ناقد خفي، ذكاء لا يستطيع أن يتناول مهام الرجال الجافة المعقدة ولكنه ذكاء من نوع سماوي رقيق.

مركب أوديب أوسيكولوجية هملت

مسرحية "هملت" أشهر من أن تذكر ويكفي للدلالة على شهرتها أن اسم هملت هو اسم الملك الدانماركي الوحيد الذي له شهرة عالمية أن المناسب قبل الدخول في تفاصيل سيكولوجية هملت أن نوجز أهم تفاصيل المسرحية ،وبخاصة ما هو متعلق منها بموضوعنا الآن وهو التحليل النعسي لشخصية هملت. فالأمير هملت مثل للأمير المثقف المتصف بأعلى درجات الفضل والتهذيب وهو فوق ذلك فيلسوف ومفكر ومحب للفنون وخاصة الموسيقى والتمثيل. وملاحظ دقيق الملاحظة رائع التعليق على الحوادث والناس. وعندما ترفع الستار نعلم أنه قد فرغ من دراسته وأنه يبلغ من العمر ثلاثين سنة تقريباً ، وهاتان النقطتان جديرتان بالملاحظة –ثقافته وعمره. ويتضح لذلك أنه ناقم على الدنيا وعلى الوسط الذي يعيش فيه وقد أعطاه ذلك السخط لونا قاتماً حزيناً وهذه النقطة أيضاً جديرة بالالتفات.. أقصد عدم الرضا المؤدي إلى الملال والضجر.

ونعلم كذلك على إثر رفع الستار أن أم الأمير تزوجت عمه بعد موت أبيه ملك الدانمارك بشهرين. ونعلم كذلك أن أول صدمة نفسية حلت بالأمير، حدثت عندما ظهر له شبح أبيه ومن ذلك الشبح علم بأمر الجريمة. ونعلم من سياق الحوار أن الشبح يكلفه بالانتقام، ونصحه أن يخلي أمه لسبيلها، وأن يدعها لضميرها وهذه النقطة جديرة بالتذكر.

ولكن هملت لم يطمئن إلى حكاية الشبح لأنه كان متفقاً لا يؤمن كل الإيمان بالأشباح والخيالات فأخذ يدبر حيلة يزداد بها تثبتا من أمر الجريمة.

ومن هنا نعلم أمر "المسرحية داخل المسرحية" وفيها ذلك التفصيل الرائع والدرس المفيد البليغ عن الممثل والتمثيل، ذلك الفصل الذي لم يكتب شيء مثله على الأجيال.

ولقد كان تأثير تلك الحيلة ناجحاً. فقد ظهر أثر الجرم على وجه العم واضحاً. وهذا ما حدا بهملت للشروع في الانتقام على الأثر. فأخذ يتصنع الجنون. أقول الجنون، وأنا أعلم أن تلك النقطة دار حولها كثير من النقاش والجدل. وضعت مؤلفات بحالها لتشرح هل كان هملت مجنوناً أم لا؟ على أن الذي يغلب على الظن أنه تصنع الجنون لكي يعمى على الآخرين مقاصده ولكن هذا التصنع لم يخف على أحد وجعله على حد تعبير النقاد في وضح الشمس **Too Much in the Sun** فأخذت الريب تحوطه والأنظار تتجه إليه فأخذ من أجل ذلك يغير مسلكه فبدل أن يمضي إلى قتل عمه توا التوى الطريق عنده وتشعب فقتل بولونيوس الوزير وجنت بسببه حبيبته أوفيليا وانتحرت. أوفيليا التي كان يحبها حباً جماً. والتي أساء الظن بها كما أساء الظن بكل امرأة بعدما انكشف له سر الجريمة بواسطة الشبح. وجعلته تلك الخطة الملتوية يضحي بصديقين عزيزين من رفاق صباه أرسلا معه لانجلترا وقد سبقتهم الأوامر للجلاد. ضحا بهما، وعاد أدراجه مسرعاً حيث التقى وجها لوجه بلايرتس أخي أوفيليا وابن بولينوس، وبعد هذا اللقاء أخذت النهاية تدنو سريعاً كفيلم هائل يكر نحو الختام.

فقد كان النزاع الذي بينه وبين لايرتس سبباً في الفصل الختامي الذي يبارزه فيه لايرتس ويجرحه فيه بسيفه المسموم والذي ينتهي بالمأساة الدامية

التي يموت فيها الجميع وتنزل الستار على ذلك المصير الفظيع.

هذا موجز صغير جداً للمسرحية الشهيرة لا أقصد به غير التذكرة على أننا قبل أن ندخل في تفاصيل التحليل يجب أن نتذكر النقط الآتية.

"١" ظهور الشبح.

"٢" المشهد الذي يموت فيه بولونيوس.

"٣" مصرع أوفيليا.

"٤" نزاع الأخ والحبيب على قبرها.

"٥" الحوار الذي دار بين هملت وأمه.

"٦" علاقة هملت بأصدقائه. ورفيقا صباه جولدسترن وروز نكراتز وهواريتو..أما عن الأولين فقد كان يعلم النفاق الذي انطوت عليه صداقتهما. وكان يفهم أن هذا اللون من الصداقة شائع في عصور الانتقال والاضمحلال. وقد كانت حالة الدانمارك في تدهور وانحلال فكان من الطبيعي أن يكثر النفاق والرياء. أما عن صديقه هواريتو فكان يطمئن إليه ويفتح له دخيلة قلبه، وهذا الفهم الدقيق لأصدقائه كان يدل على أنه كان عاقلاً متمتعاً بأتم ما يكون عليه العقل السليم- وأنه كان بصيراً بكل شيء وبكل حال.

"٧" الطريقة التي دفع بها الملك لايرتس للانتقام من هملت.

"٨" أخيراً الفاجعة الأخيرة التي ينزل عليها الستار.

هذا ما يهم من جهة المسرحية أما من جهة الخصائص الخلقية

والنفسية فيجب أن نتذكر أولاً عن هملت أنه أمير مثقف وذو نزعة إلى التفكير الحزين والتأمل والمراجعة فأما الملكة فإنها في رأي جيته "مفرطة العاطفة تعيش بعيني ابنها" وتعبد الملذات، أما أوفيليا فهي وديعة مطيعة ولكن ضعيفة سطحية وظل لأبيها، فنيت شخصيتها في شخصيته فهي لا تستمع إلا إليه ولا تعمل إلا برأيه حتى في أدق دخائلها وهو ما يتعلق بحبها لهملت.

أما لايرتس فهو نقيض هملت في كل شيء. سطحي ثرثار شديد الاندفاع.

أما بولونيوس فالحكمة السطحية والتجربة التي جمعها بالعمر والمرانة وأفكاره قديمة بالية محافظ. وله ميل إلى الحيلة والوقيعة والدس.

أما العم أو الملك المغتصب فهو طراز المجرم الذي يدوس الضمير في سبيل إدراك أوطاره.

* * *

إذا عرضنا للمسرحية كأنها قصة انتقام جيدة الحبك والسبك، مثيرة للانتباه فإن هذا يكفي لتفسير نجاحها ولكن لا يكفي لتفسير خلودها لا يكفي لأن تفسر لنا لماذا تزداد جدة وطرافة كلما مر عليها الزمن. ولماذا يزداد الناس إقبالاً على مشاهدتها كلما قدم العهد وتغيرت أشكال المسرحيات وألوانها؟

إنه من الثابت أنه لا يكفي المسرحية أن تكون التماسكة جيدة السبك متزنة منطقية المبدأ والختام. لا تكفي تلك الخصائص للخلود.

إنا لنعلم أن شكسبير لم يبتدع هملت، فهي أسطورة كانت معروفة قبله فقد سبقته هاملتات عديدة. وكلها تتركز حول فكرة واحدة هي فكرة الانتقام. وكل تلك المسرحيات نجحت وأصابت شهرة ذائعة ولكن الخلود كان من نصيب شكسبير وحده فما السبب؟ إني لأذكر على سبيل المثال هاملت التي وضعها المؤلف المسرحي الفرنسي بلفورست وتلك التي وضعها المؤلف الانكليزي كيد. كلا المؤلفين أصاب نجاحاً بعيداً ولكن لننظر أين تقع "ضربة المعلم" في مسرحية شكسبير إن هذا الخروج من شكسبير على المألوف، تنكب الدرب الشائع، هو سر عبقريته. إنه ينفرد بفهم إنساني خاص. هو الذي جعله مخالفاً لكل من جاء ومن سيجيء.

ففي المسرحيات الأولى عن هملت لم يكن هناك فصل الشبح وإنما كان يشار إليه أو يتحدث عنه. أما إخراج الشبح بذلك الشكل الرائع وتفصيله ذلك التفصيل العجيب فيعني أنه هو الذي أدرك بناقد بصيرته أن هذا اللقاء بين الشبح وهملت– هو محور المسرحية. إن ذلك القتل جاء خفية، بخلاف المسرحيات الأخرى التي كان القتل فيها علناً أي لم تكن هناك جريمة ولا خفاء..

وفوق ذلك فقد كان هاملت قبل شكسبير أو هملت كما كان يسمى في ذلك الوقت الذي يقتل فيه أبوه، صبياً ولذلك كان يدبر القتل تدبيراً مباشراً فينتهي بالانتصار واستعادة العرش المغتصب.

وكان في الروايات القديم يتصنع الجنون ولكنه كان جنوناً منظماً جيد السبك والتدبير، ولم يكن بأية حال شبيهاً بالجنون الذي اتصف به هملت

في مسرحية شكسبير. فإنه لم يكن جنوناً كما يسمى بالطب **Psychose** بل جنوناً فرويدياً محضاً نيوروز يتميز بفترات ونزوات مختلفة متباينة، يتميز بفترات من الهدوء والتأمل تعقبه فترات من الغضب تتبعها فترات من الميل إلى الانتحار، وتتعاودها فترات من الاستخفاف بالناس والسخرية منهم. وبين هذا وذاك فترات من تأنيب الضمير وتقريع النفس والندم على التراجع والتردد. ذلك هو جنون هملت عند شكسبير جنون يكاد يكون حقيقياً ولا متصنعاً. يكاد يكون أقرب شيء لما ينتظر من شخص مثقف مهذب حي الضمير. كلف بالانتقام فتردد بين الواجب والضمير وبين التهذيب والوحشية وبين الإنسان الأول البدائي الهمجي المنتقم وبين الإنسان الذي استيقظ فيه ضمير المدنية وأخذ يحاسبه ويراجعه.

ومن ألطف ما قرأت في المسرحيات الأولى طريقة اختبار هملت إذ أنه عندما أخذ الملك المغتصب يشك في حقيقة جنون هملت أراد أن يختبره فماذا يصنع؟ وضعه تحت اختبار له شأن خطير في تاريخ المعرفة الإنسانية فإن المعرفة في أصلها "تناسلية" فإن الشخص إذا عرف أن يغازل امرأة ويظفر بها، فإنه ليس بمجنون مطلقاً. ولذلك جاء في الأساطير أن "آدم عرف امرأته" وعلى ذلك فإن الملك المغتصب أوحى لامرأة أن تجتذب هملت إليها ليرى كيف يصنع ؟ولكن هملت كان ماكراً إذ أمكنه أن يظفر بالمرأة بدون أن يجعلها تفشي السر لأحد.

فها هو إذن موجز لما ابتدعه شكسبير وما أضافه لعالمي الأدب والنفس:

"١" هو الذي خلق عنصر "الخفاء" والجريمة فأعطى كل الأهمية لمشهد الشبح بعد أن كان شيئاً عديم الأهمية.

"٢" هو الذي أبدى هملت رجلاً لا صبياً. أي شخصاً ذا شخصية ناضجة. ثم تعليمها وتهذيبها فصار لها كل الخصائص التي تجعل القتال والتدبير عنيفاً ومثيراً من ناحية الخطة ومن ناحية التفكير.

"٣" غير هيكل الدراما اليونانية كلها فقد كانت تعتمد على الظروف الخارجة والأقدار المفاجئة لإحداث أزمة. فجعل شكسبير مدار الأزمة ثورة داخلية في نفس رجل. بعبارة أخرى كان رمزاً لما عبرت عنه النهضة. فإن النهضة قامت على إعطاء قيمة إنسانية ممتازة للفرد، وعلى إعطاء أهمية للتيارات المتفاعلة داخل النفس. إذ لم يكن للإنسان قبل النهضة قيمة فردية هامة. كان شيئاً ضائعاً في غمار الزحام.

وبعبارة أخرى كان شكسبير أول عالم بدخائل النفس أمكنه بنظرة ملهمة أن يلم بالاتجاهات الإنسانية ومراميها أدرك ذلك من قبل فرويد وتلاميذه، ومن قبل أن يتصدى علماء النفس للتحليل والتشريح أدركه بخياله الملهم وعبقريته الثاقبة. على أنه فوق ذلك لم تكن مسألة هملت مجرد معضلة تتطلب الحل، لم تكن مجرد فكرة تتطلب البيان كلا بل أن مسألة هملت عند شكسبير هي النفس الإنسانية بكل خفاياها وشعابها، بكل منحنياتها وزواياها وطواياها معروضة لعلها تجد من الشارحين حلاً شافياً وفوق ذلك فهو أول مؤلف في تلك الأيام عرض لمسألة المقياس الخلقي. أعني أول مؤلف انتبه لاستيقاظ الضمير الاجتماعي، ولشرح مسألة

الضمير أرجو الرجوع إلى الفصل السابق الخاص بنفسية الشعوب ففيه تفصيل كاف فلا نعود إليه. ولكن نقول لنفرض أن شخصاً مثقفاً منا يعيش في العصر الحاضر قضى عليه أن ينتقم من عمه على شرط أن يدع أمه بدون أن يمسها بسوء مع أنها مشتركة في الإثم لابد أن يصنع ما صنع هملت من المراجعة والتدبر والتأمل. لابد أن يصنع ما صنع هملت من التردد حيناً والاندفاع حيناً. لقد كان هملت في كل المسرحيات الأولى بدائياً يدبر القتل فيمضي إليه بلا اعتراض من ضمير ولا وازع من رقيب، أما شكسبير فقد وصف لنا الإنسان المثقف حين تعترضه معضلة الأخذ بالثأر، فتصير العقبات أكثرها في قرارة النفس والكارثة كلها في الداخل لا في الخارج وفوق ذلك فقد غير معنى "القدر" في المسرحيات وثب بذلك المعنى إلى شيء حديث جداً. أي قفز بالفكرة إلى الأمام قروناً وقروناً، فلقد كانت الفكرة عن القدر إنه عوامل مسيطرة خفية تتآمر على البطل حتى تودي به فوضح أن الفكرة عن القدر عند شكسبير أن قدر الإنسان هو خلقه وشخصيته. وهي الفكرة السائدة في زماننا هذا، فلقد كان من المستطاع عن عملت لو كانت الظروف الخارجة هي السبب الوحيد في تردده وللكوارث التي منى بها كان من السهل عليه أن يتغلب عليها. فإنه قتل بولونيوس حين أراد في طرفة عين وضحى برفيقي صباه غير آسف على أن الواضح أن شكسبير يخشى أن ينكر إصبع القدر تماماً. فإن هملت حين مضى أول مرة لقتل عمه وكانت الفرصة سانحة وجده يصلي فخشي إن هو قتله إذ ذاك أن تنال روحه مغفرة السماء فانصرف عن قتله مؤقتاً. ولو أنه قتله إذ ذاك لانتهت المسرحية ولكن العوامل التي ذكرتها، منعت

هملت المثقف المتحضر من قتل الملك وهو يؤدي الصلاة. وكذلك إصبع القدر الذي تدخل إذ ذاك كل هذا أعطى للمسرحية ذلك اللون الطريف العجيب.

ولكن لماذا يتردد الرجل المتحضر المهذب المثقف ما دام الأمر واضحاً والجريمة بينه..؟ لقد قامت الأدلة ووضح الخفاء فلماذا لا يقوم هملت توا بتنفيذ أغراضه؟ لقد ذكرت إجابات كثيرة لتلك الأسئلة بحيث لم يترك الإجابة عليها ناقد شهير ولا مؤلف كبير ولا أديب له قيمة ولكن أكثر تلك الإجابات رفضت لأنها لم تكن تنطبق عل الواقع بالرغم من أن أكثرها له من الحجج ما يؤيده.

وبعض تلك الحلول فلسفي وبعضه رمزي سياسي. وبعضه خرافي وبعضه ثوري تمردي. وبعضه حين لم يجد حلاً أتهم المسرحية بأنها خالية من القصد والمعنى.

ولكن خلود المسرحية كان للرد على ذلك ،ويكفي للاستدلال على أهميتها من كل ناحية أنها كانت مرآة صحيحة لعصر النهضة عصر التحول من الظلام إلى النور من عصر السلبية إلى الإيجابية والحقائق الدامغة وكما أن المسرحية تصور تحولاً في التاريخ الأدبي فإنها تصور تحولاً خطيراً في حياة شكسبير ذاته. إنها تصور العبقرية وقد أخذت تنضج وتشعر بحراب الأيام ووخزات الزمن تصور مرحلة في حياة شكسبير عندما تحول شكسبير الضاحك المرح إلى شكسبير الحزين المكتئب.

لم يبح شكسبير في مسرحة بما باح به عن مكنوناته في مسرحية

هملت. فإنه يبدو للمتتبع لتاريخ الحوادث أن شكسبير أخرج هملت بعد موت أبيه بقليل وأيضاً بعد أن خانته ماري فيتون وتركت لندن نهائياً. وماري فيتون هي "السيدة السمراء" في أغاني شكسبير ويظهر أن خيانتها له هي التي جعلته قاسياً على المرأة في هملت فيصور لنا، إما خائنة وحبيبة ضعيفة سطحية فاقدة الشخصية، لقد كان شكسبير حساس النفس ككل عبقري فانطبعت الخيبة الحب على قلبه انطباعاً أليماً صوره في هملت أروع تصوير ويظهر أن فكرة هملت كانت قديمة لديه وكان عازماً على إبرازها للوجود بدليل أنه سمى أحد أولاد "هملت" وبدليل أن يوليوس قيصر وهملت تتفقان من ناحية الانتقام سيكولوجيا فقد ذكر بلوطارخ أن بروتس كان ابناً غير شرعي ليوليوس قيصر. وأنه صاح "أهذا أنت يا ابني" ولم يقل كما هو مشهور "أهذا أنت يا بروتس". يفهم من ذلك أن صراعاً عنيفاً كان دائراً من قبل في نفس شكسبير فتألبت الحوادث وتضافرت على إبرازه فأخرج هملت وجعلها صورة لذلك الصراع المخيف.

أعود فأتكلم عن تردد هملت والمدارس التي تصدت لتفسير تلك الظاهرة: أولا هناك مدرسة جيته وهو ينسب تردده لضعف شخصيته ويقول أن العمل كان أكبر من الشخصية التي تصدت له: وكان يشبه المسألة بشجرة كبيرة تنمو في إناء صغير لا يلبث أن يتحطم عندما تنمو الشجرة.

والمدرسة الفرنسية وثيقة الصلة بآراء جيته فإنها تقول أن ضعف الشخصية ناشئ من قلة التوازن بين التفكير والعاطفة من ناحية وبين العمل من ناحية أخرى فإن كثرة التفكير والعاطفة شلتا حركة العمل تماماً.

ويسمونها بالفرنسية مأساة الفكر **Tragédie derla pensée**.

ويقول البروفسور داودن أن هملت لم يكن ينقصه العمل فإنه لا شك كان يعمل ولكن العمل عنده متقطع ممزق الشمل غير متماسك. كان يشبه حمم بركان يثور أحياناً. وحتى تفكيره كان عبارة عن حقائق تذوب أحياناً وتتماسك أحياناً ثم تتبخر أخيراً تبخر الأشباح ليست بأفكار حقيقية ولكنها فقاقيع مخية.

أما المدرسة الثانية فتقول إن العمل نفسه غير مستطاع التنفيذ بأية حال، ولكن الرد على ذلك هو أن الفرص سنحت له كثيراً ولكنه كان يدعها تمر ثم يسترسل في الندم وتقريع الضمير ثم يهب ثانيا ثم يتراخى وهكذا..

أما المدرسة الثالثة فهي مدرسة فرويد، يقول فرويد إن المسألة كلها ناشئة من قلق نفسي مصدره طبيعة عصبية. لقد كانت الطبيعة العصبية موجودة بهملت أصلاً. وغذتها الوراثة والثقافة والبيئة وهذه الطبيعة العصبية مصدر كل عمل فني. وقد يستمر الإنسان في حياة سهلة بدون أن يحدث شيء ما. فإذا حدثت أزمة أو ما يسمى عتد علماء النفس **Situation** تقتضي تصرفاً خاصاً من تلك الشخصية العصبية. فهنا تبدو الأعراض واضحة: تبدو أعراض المرض للعيان فقد كان الانتقام من العم سهلاً لو لم تكن هناك مشكلة الأم. لو لم يكن هناك "مركب أوديب" أي العلاقة الشديدة بين الأم وابنها والتي يقول فرويد أنها في الأصل جنسية– فتلك المشكلة أحدثت ما يسمى بالكبت **Repression** والكبت معناه

كظم عاطفة أو عمل لا يليق ظهوره أمام الناس ثم يصير هذا الكبت غير اختياري فننساه بتاتاً ولكنه لا ينسانا فتظهر علينا أعراض غريبة تعرف أنها أعراض مرض. أعراض حقيقية نلمسها ولكن نكون قد نسينا مصدرها ونشوءها.

وثمة سبب سيكولوجي كبير، أن في علم النفس ما يسمى توافق الذات **Identification** أي أن هملت مثلاً يعد نفسه كأبيه أو يريد أن يحل محله أو يكون على صورته، فالأب والابن في العقل الباطن صورة واحدة، وقد تنتقل صورة الأب إلى العم، أو من يقوم مقام الأب فهملت يحكم مركب أوديب الذي عادة ينتهي في البلوغ فحل به عند هملت ما يسمى عند علماء النفس **Fixation** ساع للانتقام ممن اغتصب أمه ولكنه في خياله سيقتل نفسه التي هي صورة من أبيه أو من عمه ولذلك يعلم في باطنه أنه سيدمر نفسه بذلك الانتقام، وهذا على الأكثر سر تردده سيكولوجيا.

سيكولوجية الحب

PSYCHOLOGY OF LOVE

الحب كلمة غامضة التعريف. وقد فسر ذلك الغموض الكاتب الشاعر المشهور دلامار في كتابه الجامع "الحب" بأن الكلمة الواحدة تتغير مدلولاتها بالأحوال والظروف والأشخاص والأمم والأجناس ومن أكثر الألفاظ التي تغيرت معنى ودلالة كلمة الحب ولقد استعرض ججو في كتابه سيكولوجية الحب بعض التعاريف في مختلف الأمم وعند مختلف الكتاب ليدل على اختلاف معنى هذه الكلمة عند الناس جميعاً بل لقد يختلف معناها عند الشخص الواحد في مختلف أدوار العمر، بل وفي ظروف مختلفة، على أن موروا أصاب إصابة كبيرة في كتابه عن فن الحياة، في الجزء الخاص بالحب حين قال أن الحب هو "فن الجنس" وفسر ذلك بأن الطبيعة تعطينا أدوات الفن في شكل خام أي أن المصور مثلاً يجد لديه الأدوات اللازمة للتصوير في متناول يديه فعليه هو أن يمزج الألوان ويحسن وضع الأضواء والظلال حتى تخرج صورة فنية، وعلى ذلك يكون الجنس هو مجرد ذكر وأنثى يتلاقيان ليتناسلا، فإذا أضيف إلى ذلك اللقاء العاطفة والخيال والفكر وما إلى ذلك فقد وجدت الصورة التي تتخيلها لكلمة "الحب".

فلننظر في التعاريف أولاً. فإنا سنجد في أكثرها تنوعاً وطرافة جديرين بالتدبر والانتباه. فالحب في رأي دي لاسال "الأنانية منقسمة على اثنين" وفي رأي شامفور تبادل خيالين والتقاء جلدين.

وأحسن ما قيل على الإطلاق في التعاريف الأدبية هو ما كتبه تيوفيل جوتيبه: "أن يسلم شخص تماماً نفسه لآخر، وأن يتنازل له عما يملك وما يعتقد فلا يرى إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنه أي أن تصير واحداً في اثنين، بحيث لا يعرف هل أنت أنت، أم أنت الآخر، فتمتص شعاعاً، وتنشر شعاعاً فتصير القمر مرة والشمس أخرى، وترى كل الخلق والوجود في الشخص الآخر، فينتقل مركز الحياة عندك إلى هناك وتكون مستعداً لأكبر التضحيات وإنكار الذات، ومستعداً لأن تتألم على الصدر الثاني كأنه صدرك أنت. والمعجزة أن تتضاعف وأنت تبذل! هذا هو الحب!"

على أن المسألة من ناحية علم النفس تتبع تقسيم الناس إلى طبقات فسيولوجية. ونحن في هذا لا نزال نتبع رأي أرسطو من قديم، ألا وهو التقسيم إلى غريزيين وعاطفيين، ومفكرين، وعلى ذلك يكون الحب أما بالغريزة أو بالعاطفة أو بالفكرة، ولما كانت العمليات السيكولوجية متشابكة متصلة فلا يمكن الفصل التام بين هذا وذاك ولكن يمكن التغليب، وحيث يمكن تقسيم كل نوع إلى فروع، كما سنرى، يمكن كتابة معادلة جبرية لكل شخص، ومنها يمكن أن نعرف نوع الحب عند الشخص المطلوب دراسته، ويمكن كذلك الحكم على صفة حبه وصلاحيته للبقاء على وجه التقريب.

إننا نتكلم في هذا البحث عن الحب من جهة علم النفس البحت، أما بحثه من وجهة نظر فرويد وتلاميذه فسنفرد له مكاناً خاصاً.

أما الحب بالغريزة، فهو الحب في الحيوانات والذين لم يتهذبوا عاطفة

ولم يرقوا فكراً وعقلاً، فهو حب فيسيولوجي محض، مبني على عامل جنسي محض والأساس فيه الانتخاب الطبيعي المعروف في التطور البيولوجي، ولقد اعتقد بعض العلماء أن هذا النوع من الحب قد يكون أصلاً للنوع الثاني وهو الحب بالعاطفة، بدليل وجود تلك العاطفة على أرقى نوع من بعض الحيوانات، ولكننا نعده في الواقع شيئاً مستقلاً تماماً، وإن كان بلادان يدعوه "غريزة القلب" ويمكن أن يتغلب على الغريزة الجنسية الأصلية– حتى في الرجل أي أن الرجل يمكنه أن يحب بعاطفته فقط.

أما النوع الثالث وهو المبني على التوافق"العقلي" وعلى الاتحاد في "الفكرة" أو في المزاج الفني أو العلمي، فهو من أشد الأنواع ثباتاً، ولكن التجاوب الجنسي هو الأساس، ولقد تنبثق الرغبة الجنسية في أي وقت بين متحدين بالفكرة، ولكنا نعرف أنها في كثير جداً من الأحوال تبقى مختبئة وهادئة، وتاركة سلطانها للفكر وحده.

ولن أطيل الآن في الكلام عن الغريزة الجنسية، فلها بحث خاص يأتي فيما بعد، ولكني أوجز هنا ما يتعلق بموضوعنا، فنقول أن الجاذبية الجنسية شيء أساسي في الطبيعة الإنسانية، وهي على عنقها تجد في مقتضيات المدنية الحاضرة ما يخفف هذا الصنف تماماً، أو يكاد يمحوه فإن المشاغل المادية والاهتمام بجمع المال والعقار، وكذلك المسائل الفكرية والفنية والعلمية، قد جعلت هذه الغريزة تحتل في حياتنا مكانا يكاد يكون ثانوياً، أضف إلى هذا الهموم والمتاعب والمسئوليات وما إلى ذلك، وكذلك ما تقتضيه الظروف من السيطرة على هذه الغريزة وجعل تلبيتها مطابقة لما تسمح به التقاليد الاجتماعية، ولكن ما هي هذه الجاذبية الجنسية التي

علينا أن نتعلم مقاومة الانقياد إليها؟ والتمهل في الجري وراءها؟ أغلب الظن أنها أولاً أمواج مغناطيسية نتلقاها، فإن وافقت الأمواج التي تشع منا فإننا "نشعر" بها وهذه الأمواج تختلف قوة وإشعاعاً في كل شخص عن الآخر، ونحن أكثر ما نكون بها إحساساً في المراهقة، والشعور بها يحدث في الشاب ارتباكاً أكثر في الشابة، والغالب أن هذا الارتباك أو الخجل الجنسي نتيجة للمدنية إذ يوجد غالباً في المثقفين، وهو أبو "الحياء" وعلى ذكر المدنية نقول أن الإنسان بينما وجد أن عليه أن يتحكم في إرادته فلا يلبي داعي الغريزة تلبية طائشة، فقد عرف بطريقة أخرى أن يستديم "اللذة" وذلك في استدامة اللمس والقبل والعناق وما أشبه ذلك ويحتمل أن الفنون نشأت من استدامة السرور على تلك الأوضاع لما فيها من الانسجام والتوافق، مع كبح النفس وادخار الطاقة العصبية، وعدم الإسراف فيها جنسياً.

ولقد لا يكون "الاختيار الحيواني" انتخاباً جنسياً فحسب، بل يكون أعمق من ذلك بكثير أي أن يكون انتخاباً عضوياً، أو في رأي رو Roux– تفضيلاً فيسيولوجيا أو بعبارة أخرى انتخاب خلية لأخرى.

الحب بالعاطفة

هذا الضرب من الحب هو أكثر ضروب الحب شيوعاً في تلك الأيام، على أن أهمية البحث فيه هي في الكشف عن ألوان سيكولوجية من الحب ليست من الحب إلا قشرة، ومع ذلك يعتقد أغلب الناس أن ما يزاولون هو الحب. فإن فشل تعجبوا وعزوا ذلك إلى خيانة من يحبون ونقصهم.

ولو أنهم حللوا حالاتهم تحليلاً صحيحاً، لأمكنهم أن يعرفوا مواقفهم بالضبط. فإذا أصابتهم خيبة في الحب، لم تكن لها وقع كارثة.

فهناك أربعة أنواع من الحب بالعاطفة:

١- مجرد الحاجة إلى الجنس الآخر.

٢- الرومانتيكية العاطفية.

٣- الحنان.

٤- المحبة المقرونة بالتقدير **Affection**.

"١" أما الحاجة إلى الجنس الآخر فهي حاجة طبيعية إنسانية فما من إنسان يميل إلى العزلة إلا إذا كان شاذاً أو وحشاً على أن ذلك قد ينشأ من مجرد نظر العازب إلى اثنين معاً. فإنه يخيل له أن في هذا الازدواج منتهى السعادة فيسارع إلى اختيار الزوجة على هذا الاعتبار غير ناظر بتاتاً إلى ما قد يكون في هذا الازدواج من القيود أو الاختلاف المحتمل.

"٢" أما الرومانتيكية، فهي شرك من الطبيعة لتطبيق القانون التناسلي. وهذه الرومانتيكية متنوعة الأشكال فمنها عبادة الطبيعة في ألوانها وأشكالها، ومنها عبادة الحفلات العامة بما فيها من موسيقى وأغان ومرح. أما الرومانتيكية في الحب فمعناها حساسية عاطفية زائدة لكل ما يختص بالمرأة. ولا جدال في أن أكثر النساء عندهن هذه الرومانتيكية نحو الرجل ولكنها لا تتيقظ حقاً إلا إذا أحبت المرأة أولاً:

وأكرر أن هذه الرومانتيكية العاطفية في الرجل شرك من الطبيعة فإن

صوت المرأة وانسجام قوامها، وأناقتها في الملبس كل هذا يجعل منها صبابها عليها فيحسب– وهو مخدوع أنه يحبها. والدليل على أن هذا حب وهمي قصير الأجل هو أنه بمجرد ما تزول هذه المظاهر التي تزيغ أبصاره ينصرف لأخرى أكثر إغراءاً من الأولى.

المهم أن هذا الضرب من العاطفة ليس حباً ولكنه نسج خيال وقشرة الحب وليست لبابة بتاتاً.

"٣" الحنان. هذا هو الرباط القوي. وقد يختبئ عند أكثر الناس المجردين من الرومانتيكية العاطفية. فيكون ظاهرهم خشنا وباطنهم ذهباً. هذا اللون من العاطفة لا يتغير بتغير أحوال المحبوب شكلاً أو خلقاً وهو يشابه من ناحية عاطفة الأمومة، غير أن هذه تعطي ولا تنتظر جزءاً، أم الحنان في الحب فلا يعيش على الهباء، بل لابد أن يغذي بالتبادل وإلا انطفأ وذوي. فما يروى يروى أن فتاة أحبت شاباً وتزوجته وكان هذا الشاب معوج السير فأحبته بعيوبه وأخطائه إلى أن مرض ذات يوم بذات الرئة فسهرت عليه ليل نهار حتى شفي. فلم يكد يشفى حتى رجع سيرته الأولى. فقبلت حتى هذا العبث وصبرت عليه. ولكنها عادت ذات يوم إلى المنزل فجأة فوجدت الخادمة في أحضانه. فألقت بنفسها من النافذة. ولكنها لم تمت، بل شفيت والواقع شفيت في النهاية جسداً وروحاً. على أن المهم في عاطفة الحنان أنها سلبية بمعنى أنها تقبل العيوب وتدلل وتغفر الذنوب وفوق ذلك فلا اتصال لها بعالم الفكر أو القيم الأخلاقية أو الفلسفية أو ما يشبه ذلك، أما النوع الأخير الذي سنشرحه فهو على النقيض، إيجابي مقترن بالتفكير والرغبة في خير المحبوب وإصلاحه.

"٤" المحبة بالتقدير **Affection** وقد تخطئ إذا سمينا هذا اللون الخالص من التقدير حباً. فإنه في رأينا ضرب من الصداقة العالية. لأنه لا يقترن بالخيال ولا الرومانتيكية، بل على العكس فيه شيء من الجمود والصرامة وميل المحب إلى خير المحبوب وتهذيبه ورفعة شأنه.

وهذا يفسر ما يعجب له كثير الناس وهو أن تحب امرأة مباحة لكل الناس رجلاً ذا شأن فلا تبيحه نفسها ولا تصنع معه قليلاً مما تصنع مع أقل منه شأناً ذلك لأن الحب هنا وهناك يختلف كل الاختلاف.

الحب بالفكرة

تتأثر فكرتنا عن الحب بعوامل شتى تختلف بالتربية والوسط والثقافة فإن فكرة الفلاحة عن الحب تختلف عن فكرة فتاة المدنية وفكرة الألمانية عنه تختلف عن فكرة الفرنسية، وفوق ذلك فنحن نتأثر بما نقرأ. ونتأثر بما نراه في السينما والمسرح وما نسمعه في الإذاعة– من تلك العوامل يتكون عند كل منا صورة خاصة لمثله الأعلى يحتل خيال وأمانيه.

فإذا وجدنا شخصاً يمثل الصورة التي كوناها في خيالنا عن مثلنا الأعلى، ارتبطت هذه الصورة المنظورة بما تكون في خيالنا عنه سابقاً وتظلل أعيننا من ذلك اليوم سحابة فكرية تغطي على أبصارنا فلا نعود نرى من نحب إلا بعين خيالنا. هذه هي خدعة الحب الكرى فإذا سار الحب على ما نشتهي صار حقيقة ثابتة، وصرنا نترجم كل ما نشاهده فيمن نحب وفقاً لما تخيلناه على أن من أهم عوامل الحب بالفكرة إرضاء النفس بالغرور. فإن الغرور أساسه أن يرضي الصورة التي في خيالنا. وما أكثر ما ينشأ من نقص

نشعر به فنريد أن نعوضه بصحبة شخص آخر. فكثيراً ما يصطحب شاب شابة جميلة أنيقة ليرضي غروره وزهوه وكثيراً ما تصحب امرأة رجلاً شهيراً ليراها الناس تتأبط ذراعه فإذا كان فناناً فيهمها أن تسمع الناس يقولون أنها ملهمته. ويرضي غرورها على كل حال أن تشعر أن لها أثراً في إنتاجه أو في شحذ عبقريته.

على أن أقوى أنواع الحب على الإطلاق هو الحب الذي يجمع عقليتين متفاهمتين. والاختلاف في العقلية لا يؤثر بحال في الحب عند غير المثقفين، أما عند المثقفين. فهو مسألة خطيرة فإن ذوي التفكير العالي عندما يتقابلون لأول مرة قد يعتري الواحد منهم وجوم طويل وذلك خوفاً من أن تبدو كلمة تدل على اختلاف في الرأي.

نعيد فنكرر أن الحب الناشئ من التوافق العقلي هو أعلى أنواع الحب وأكثرها دواماً.

العلاقة بين الأنواع الثلاثة

إن نشاطنا ينجلي إما عن طريق الغريزة أو عن طريق الانفعال أو عن طريق العقل ويمكن فهم ذلك من الرسم الآتي:

أنواع النشاط الثلاثة	يظهر النشاط	عناصره
عقلي	فكرة	توافق عقلي أو خيال أو غرور
انفعالي	عاطفة	مجرد حاجة إلى امرأة أو حالة تأثيرية عاطفية أو حنان أو محبة التقدير

غريزي	حساسية	تجاذب جنسي خاص أو حالة جنسية عامة أو حالة جنسية شاذة

ومهما يكن من مظهر النشاط فإنه يندر أن يبدو في شكل واحد بل الغالب أنه يكون مزيجاً من العناصر المذكورة أعلاه، وهذا المزج يحدث في العقل الباطن ويحدث بنسب مختلفة يمكن التعبير عنها بالشكل الآتي:-

ح= ١٥ وزائد ٥هـ زائد ١٠ وإذا جعلنا الدرجة العليا ٢٠ مثلاً ح= الحب هـ= حالة تأثيرية عاطفية "رومانتيكية" و= حنان.

قلنا أن تلك العناصر تمزج في العقل الباطن. والمهم أن نعلم أنها تمتزج هناك بغير علم منا. وهذا هو المثل.

يتلاقى بعض الشبان والشابات يتكلم الشاب "أ" مع الآنسة ب. يتأثر بنبرات صوتها أو تفكيرها أو شكل وجهها. ثم يمضي ليتحدث إلى أخريات منهن الآنسة "ب" وهي لا تقل جمالاً وفتنة عن "أ" وقد اعتاد أن يراها ويعجب بها، ولكنه بعدما ينصرف، وقد خيل له أنه نسي كل شيء وتمر أيام قد تكون خالية من كل شيء، أو فيها شيء من الضيق الخفي، وإذا به يكتشف فجأة أمراً في نفسه، وهو أن الآنسة لازمة له ويضجر لأنها غائبة عنه وقد يلاقي هذه الآنسة وتلك ولكنه يشعر شعوراً وثيقاً أنه ما من أحد يسد مكان الآنسة "أ"..

ويقول عقلة الباطن أني أريد أن أراها أني لا أستطيع أن أعيش بدونه.

وفي النهاية "أني أحبها" يمكن أن نعبر عما حدث أن صوتها وهو

مظهر من الجاذبية الجنسية كان المنبه الأول ولندعه "و" ثم يجر هذا في العقل الباطن إلى استحسان قوامها وحديثها فلندع هذا المظهر التأثري العاطفي "ه" فقد أضيف "و" إلى "ه" فإذا أضيف إلى هذا عنصر من عناصر الخيال "ب" وكان المزج قوياً وثيقاً نشأ الحب الحقيقي بكل معناه السيكولوجية.

وقد أصر ستندال على وجوب "الإعجاب" كعنصر من عناصر الحب وشرطاً لميلاده. وقسم الإعجاب إلى ثلاثة أقسام:

"١" إعجاب بالخطوط والتقاسيم والمظهر.

"٢" إعجاب بصفة عقلية أو خلقية.

"٣" إعجاب مبني على صورة خيالية.

فعلى هذا يكون الحب الكامل. هو الإعجاب الكامل المكون من تلك الأقسام الثلاثة، وإننا لو دققنا النظر في رأي ستندال لوجدناه يجمع سيكولوجية الحب التي فصلناها تفصيلاً وافياً في كلمة الإعجاب التي يذكرها.

أنواع النساء في الحب

المرأة الباردة: هذا الصنف نلقاه كثيراً وميزته أنه لا يهتم بالحب ولا يعرفه فإذا اتصلت برجل كان ذلك بالتقليد أو الغرور أو للمصلحة وكل حياتها إنما هي أوتوماتيكية اجتماعية، ولا تشعر إلا بنوع واحد من الحب هو الحب لأطفالها.

المرأة الاعتيادية: متزنة العاطفة والعقل والجنس، إذا انبثق حبها "وقد لا ينبثق" مشي هادئاً. ينقصها الابتكار والبدأ بأي شيء ويستحيل أن تحب من نظرة واحدة ولا يولد حبها إلا إذا جاء من يعرف أن يولده. وكثير من هؤلاء النساء متهمات بالبرود، وذلك لأنهن لم يوفقن للرجل الذي يعرف كيف يستخرج كنزهن المدفون.

المرأة العنيفة: تجمع بين ناحيتين متناقضتين لا تخضع الواحدة منهما للأخرى. فهي قد تحب بجسدها حباً جارفاً وتحب بعقلها حباً عاصفاً. وقد تزاولهما معا، لرجلين مختلفين ولا يمكن لرجل واحد أن يقوم لهما بحاجتيها لأنها مطبوعة على حب التغيير والتبديل. وفي طباعهن كثير من الرجولة، ويملن إلى الرجل الذي تتجلى فيه الذكورة على أتمها قوة أو فكراً.

المرأة العاطفية: فصلنا سابقاً الفرق بين العاطفة التأثرية والحنان والحب بالتقدير والاحترام. غير أننا هنا نزيد على ذلك أن الرجل لا يستلزم أن يكون عاطفياً تأثرياً، لكي يملك الحنان والقدرة على المحبة أي أنه قد يكون خشن المظهر، لا يتأثر بالمظاهر الجميلة، ومع ذلك فهو مستطيع بذل حنان ومحبة كبيرتين. ولكن المرأة التي تملك العاطفة التأثيرية، دائماً يكون عندها قدر وفير من الحنان، أو المحبة، ولكن هذا ليس بقانون عام، فكم من نساء يخدعننا على أننا بصورة عامة يمكن أن نميز هذه من ذلك ملاحظة:

"١" مقدار الأنانية عندها، فهذه الصفة تتعارض مع صفات الحنان والمحبة طبيعتها.

"٢" معاملتها وحب للأطفال على أن المرأة المحبة فتبدو طبيعتها هذه من الصغر. فإن إخلاصها ثابت لا يتغير بالظروف وقد قلنا سابقاً أن حبها يغفر ويسامح. ولكنها تنتظر أن يبادلها الرجل حبها، فإذا بادلها غفرت له جميع عيوبه.

المرأة الملتهبة العاطفة: عاطفة هذا الصنف من النساء مبنية على الخيال الثائر العنيف. والغالب أنهن مثقفات تثقيفاً عالياً. ولكن الواحدة ما تكاد تجد الصورة التي في خيالها عن بطلها حتى تفنى فيه فناءاً كاملاً وتتحمس له تحمساً كبيراً. وبقدر ما تكون هذه المرأة صلبة وعنيدة وغير مبالية في حالتها الطبيعية بقدر ما تتغير في حالة الحب وتقوم بتضحيات خارقة للعادة.

المرأة المفكرة: قد تكون اكتسبت التفكير بالتعليم والثقيف ولكن الغالب أن هذا الصنف يولد ولا يصنع وأهم صفة فيها التحليل والتحميض ومن آياتها أنها تقدر الرجل أولاً ثم تحبه بعد ذلك التقدير. فإذا امتزج ذلك التقدير، بقلب وفي محب كانت المرأة تمثل أرقى صنف من النساء والغالب أنها إذا لم تصادف من تقدره وتحترمه تعيش في عزلة تامة، أو توجه نشاطها لمجهودات عامة تصرف فيها تفكيرها وعاطفتها.

على أن هناك نوعاً من المرأة المفكرة التي لا قلب لها وأغلب الظن أنها تنقلب مجنونة يوماً ماً. وعلى الأقل تنصرف إلى الإجرام أو الرذيلة.

"١" الغريزيون.

نقصد بالغريزيين أولئك الذين لم تتناول الثقافة تهذيب غرائزهم بعد.

وقد صار هذا النوع قليلاً جداً في عصرنا الحاضر. ولا يجب أن نسئ الظن بتأثير الغريزة المطلقة: فبمقدار ما توجد أنواع من الغريزة غاية في سوء الطباع، بمقدار ما توجد أنواع غاية في حسن الخلق والطباع الرفيع.

وأول قسم من هؤلاء طبقة الفلاحين، والحب عند الفلاحين غريزة نائمة يغطي عليهما الجهد للحصول على القوت والمنفعة ولعل نوع الغريزة عندهم ناشئ من الضرورات التي تقضي بها حالة القرية نفسها، من صعوبة التخفي، وقلة المصادفات الغرامية، ولذلك ما يكاد الفلاح يحس تنبه الغريزة حتى يسارع إلى اختيار الزوجة اختياراً يراعى فيه قبل كل شيء زيادة الموارد الاقتصادية، أو الجاه عن طريق الاتصال بأسرة معروفة.

أما في المدينة فإنصاف الغريزين هم طبقة الصناع والعمال، وهؤلاء يسارع الواحد منهم في سن مبكرة إلى إيجاد صلة بفتاة أو امرأة من أهل المدينة، ويتجه الواحد منهم حسب ميوله، فيتزوج بحكم المصادفة، إذا وجد الواحد منهم فيمن يعاشرها –من اعتياده التردد عليها– ما يأمله من الراحة المنزلية، قبل التفكير في أية علاقة أخرى.. وهذا ناشئ من أنهم نصف متعلمين تلقوا معلوماتهم من القراءة السطحية، والسينما والراديو–.

"٢" المتوسطون:

هؤلاء تلقوا تعليماً عقلياً محضاً، وهم أرقى من السابقين فقد أتموا التعليم في المدارس، ولكنهم ما يزالون ينتسبون إلى الغريزيين لأنهم لم يثقفوا تثقيفاً روحياً. وأول ما يتلقى الواحد من هؤلاء دروس الحب إنما يتلقاه على يد خادمة في الدار أو مربية، أو صديقة للعائلة: ويأخذ من الحب فكرة

خاطئة والغالب أن أفراد هذه الطبقة ولنضرب مثلاً، شاب من عائلة متوسطة،- لا يخلو من مراقبة عائلته، مع توجيه خلقي وسيكولوجي أكثره مبني على الخطأ، ولذلك فإن الفرد منهم يعيش في جو مصطنع، يدفئه خياله المنبثق، ولذلك كثيراً ما يحدث بسبب ذلك الشذوذ الجنسي، أو يكتشف الشاب كذب المأساة أو الملهاة التي تمثلها فتاته، فإما يسوء ظنه بطبيعة الحب، أو يسوء ظنه بالحياة على الإطلاق-.

"٣" المحظوظون:

ثلاثة أقسام: المنصفون بجاذبية وهبية، والأغنياء، ثم المتصفون عقلاً وروحاً بمقدرة على الحب المثالي.

القسم الأول- يجد لجاذبيته الطبيعية مورد النساء سهلاً، ولكن التحليل السيكولوجي لهذا الصنف أدى إلى فهم نفسيتهم، فإن سهولة الحصول على ما يبتغون، جعلهم لا يشعرون مطلقاً بعظمة الحب العميق، وهم من تلك الناحية دائماً في شقاء مستتر.

أما الغني أو ابن الغني، فغناه ييسر له طرق دور المحرمات من سن باكر. وغالباً ما يقع في حبائل امرأة جميلة ماكرة. فتمنحه دنيا مزيفة قد يفيق منها أو لا يفيق.

أما الصنف الثالث وهو صنف القادرين على الحب المثالي فهو قليل جداً، وقد كاد ينعدم، ويتميزون بقدرتهم على الفناء في حب امرأة واحدة، وقد يلاقون المر من الخيانة والغدر والحرمان ولكنهم يجدون عظمتهم ولذتهم في هذا الحرمان.

الفهرس